القسم الثالث

شهادة القرآن في قصصه الحق

الفصل الأول

الصدق البياني
وحركة التاريخ في قصص القرآن

إن قراءة الجانب القصصي في القرآن بوصفه أعظم المصادر وأوثقها في أيدي العرب لمنهج متميز في قص القصص باللغة العربية – تكفي للكشف عن الفارق الذي يبلغ ما بين القصص القرآني وقصص الشعوب واللغات الأخرى من الأساطير والروايات والمسرحيات – حد ما بين الجد والهزل. وما بين الصدق والكذب. وما بين الإسلام والوثنية.

ومن البداية نجد أن كلمة "القصص" في القرآن ترجع في جذرها اللغوي، ومعناها الاصطلاحي إلى ما أشرنا إليه في الفصل السابق من أصلها ومعناها في علم اللغة العربية، فكلمة "قص" و"قصص" يعنيان في القرآن الكريم تتبع الخبر والحديث على وجه الحق والصدق فيه. وهو تتبع لا مجال فيه قط للخيال أو المبالغة. كما أنه تتبع لا تقصر حكمته على الصدق البياني للخبر والصدق التاريخي، وإنما يرتبط دائما بهذا الصدق أن يكون الخبر القصصي كما يقصه القرآن جزءا حيا من حركة التاريخ، يتنزل الله به أمام أعين المؤمنين وأسماعهم، ليشهدوا ويعوا دالة السنن التي حكمت مسيرة البشر ومصائرهم في الماضي حكما علميا مقننا لا تحول فيه ولا تبدل. فالغاية من القصص القرآني ليست مجرد الإعلام بما حدث من أخبار الأمم والشعوب بالتتبع الصادق لأخبارها، وإنما الغاية أن يكون هذا القصص نفسه هاديا للمؤمنين إلى الطريق الصحيح الذي يتتبعون به خطى من سلف من المؤمنين، الذين اختاروا الهدى بالله عن علم، ونبذوا الضلالة والإلحاد عن برهان ويقين.

القرآن والتاريخ:

يقول الله تعالى في سورة يوسف: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ ثم يقص الله بعد ذلك قصة يوسف وإخوته.

فالقصص الحسن هنا ليس "الرواية المتخيلة" من الواقع، وليس "الرواية المصنوعة" بمحاكاة الواقع، وإنما هو التاريخ، والخبر، وحقيقة ما كان. إنه مشاهد التاريخ في حركة وصور وأصوات ليست في حقيقتها – كما تصدر عن المتحركين والمتكلمين في هذا القصص الحق – إلا حركة القوانين التي تحكم البشر بمشيئة الله إلى غايته. إنها حركة قوانين وسنن التاريخ المستمرة في البشر – كما أرادها الله – بارزة وناطقة في مثال كامل تتحرك فيه الحياة من خلال أشخاص لا يمكن أن ننسى مواقفهم، لأنهم في جميع كلماتهم وحركاتهم لا يتجاوزون التعبير عن هذه السنن والقوانين التي تنطق فيهم، إلى التعبير عن مشاعرهم الخاصة، أو التعرض للتفاصيل التي تنتقص من كمال دلالاتهم على قانون بشري عام يسري به الزمان والمكان على جميع نوع الإنسان. ولذلك فقد عاشت هذه القصص الصادقة وهي تقنن سنن التاريخ إلى اليوم دون أن يطرأ على تأثيرها والعظمة بها أي تغيير.

البطل الحقيقي في قصص القرآن ليس إذن هو هذا الإنسان بذاته الذي تدور به أو من حوله أحداث الخبر. . البطل هو القانون التاريخي المرتبط بعقيدة الإنسان وأخلاقه وسلوكه . . البطل هو هذا القانون الذي تظهر نتائجه في أقوال وأفعال الإنسان المؤمن أو الكافر صحيحة الآثار في الجماعة التي تعبر عنها، أو التي يعارضها.. البطل مثلا ليس يعقوب وأولاده، وإنما هو "الهداية" في يعقوب و"الردة" في أولاده.. البطل ليس يوسف وصاحبته وإنما هو الطهارة والأمانة في يوسف والشهوة والخيانة في صاحبته.. وهكذا في مختلف المواقف يكون الإنسان بهداية الإيمان أو ضلالة الكفر رمزا لقانون يحكم، وينطق فيه.

من أجل هذا لم يكن الإنسان كما يقدمه قصص القرآن شيئا مذكورا من أجل استعراض آلاف الاحتمالات المتخيلة لقوته أو ضعفه.. وإنما هو إنسان مذكور داخل جماعته، ومن أجل جماعته، ولا يترتب على ذكره إلا صالح هذه الجماعة، فليس لمواقف بطولته وشجاعته – في الواقع الصادق – أية امتيازات كتلك التي يقتضيها الأبطال بين الوثنيين من شعوبهم إلى حد التألية، واستباحة الطغيان، سواء في الأسطورة، أو واقع الحياة.

البطل في منهج قصص القرآن هو الأسوة لغيره، وهو القدوة لمن يقتدي به، لأنه أعطى برهان القانون التاريخي في قوله وعمله على أن الإيمان هو الطريق الصحيح لمسيرة البشر نحو هدف جماعي، وتقدم علمي، ونصر محقق.

بهذا أسقط منهج القصص القرآني نظرية التاريخ التي تجعل "بطولة الأبطال" بمفهوم الغزاة وقادة الجيوش العدوانيين هي محور أحداثه وأخباره، كما أسقط نظرية "الصراع" التي تربط أحداث التاريخ بهذا التسابق نفسه بين الجبابرة والمتسلطين على الغزو فيما بين دولة وأخرى، أو معسكر ونقيضه، كما جرى ذلك قديما وطويلا بين الروم والفرس، وكما يجري اليوم بنفس المفهوم بين الشرق والغرب.

كذلك فإن القرآن عندما أثبت في قصصه حقيقة السنن التي لاتتحول في حركة التاريخ فإنه لم يأخذ في هذا مظاهر النظرية التي تقول بدورة التاريخ وإنما أرسى في بيانه عن الحتمية في سنن التاريخ هذه الأسباب والعوامل الثابتة والمتجددة مع ثباتها، والتي تحيا بها الأمم وتزدهر، أو التي تسقط بها الأمم وتتحطم.

إن منهج القصص القرآني يؤكد أن الإيمان الذي يقيم السواسية، ويجري به تقاسم الأموال، واليقين بالحساب عن الأعمال، وباستمرار الحياة بعد الحياة – هو مصدر قوة الأمم، وقاعدة أمنها وازدهارها، كما يؤكد أن الأمم لا تسقط بعد إيمانها وقوتها إلا بالترف الذي يجرها إلى الكفران، ويدفعها إلى التعاون في العمل، وإلى اللهو والشذوذ، وإلى السخرة للآخرين والاستغلال لجهودهم، وسرقة حاصل أعمالهم. وهذا المنهج واضح في مخالفته للنظريات الأوروبية في دورة التاريخ من حيث أن هذه النظريات لا تزال تضع "الرفاهية" هدفا بارزا وأساسيا أمام القوى المسيطرة والموجهة للنظم الاجتماعية المختلفة التي أحلت "الفلسفات" والنظم الحزبية محل الإيمان وشرائعه وحقائقه في البناء السَّوي لمجتمع الإنسان، وبذلك فإن هذه النظم: رأسمالية كانت أو شيوعية أو صهيونية تستعجل دائما مع نجاحها الشكلي والتنظيمي أسباب انهيارها الاجتماعي والإنساني والحضاري.. وذلك بسبب هذا السباق على "الرفاهية" التي لا يمكن أن تتحقق إلى بطبقة، والتي لا يمكن أن تجمع الشعوب والنظم بين استهدافها – أي الرفاهية – وهي "ترف قاتل" وبين استهداف الهدف الإنساني الأعظم الذي احتفظ به الإيمان وهو: أخوة الإيمان التي يتقاسم بها المؤمنون نعمة الحرية والمسئولية والرخاء.

العجمة والوثنية:

من أجل هذا لم يتناول القرآن في قصصه ذكر الشعوب الأعجمية وقد كانت على امتداد الذراع من أطراف الجزيرة العربية، وكانت تملأ الأرض من حولهم ضجيجا وظلما، ومواكب وجندا. ذلك لأنهم كانوا وهم يمضغون بالعجمة لجما في أفواههم لا يبينون عن حق، وكانوا بصراعهم على الرفاهية قد أذلوا كثرتهم، وعبدوا ملوكهم، كما انهم وقد فقدوا

تصور الحق ونزلوا عن مستوى التوجه إلى الله الحق عاشوا يتلمسون الحقيقية التي فقدوها في التقلب بين باطل وباطل، وظاهر وباطن، ولفظ ومعنى لا يؤديه اللفظ، ومعنى لا لفظ يدركون به هذا المعنى..!

هكذا عجزت تلك اللغات الأعجمية في شعوبها، ولا تزال تعجز عن أن ترتقي بنظامها الصوتي، ولغاتها المفصلية، التي يخرج بها ناطقها عن واقعه إلى إله أعظم فوق مستوى الآلهة المجسدة، أو القوى البشرية المعبودة، وبذلك انتكست هذه الشعوب عن قدرة الإشارة إلى الله الحق، ومن ثم عن قدرة الاعتدال والنهوض من نكستها بقوة الإيمان، فهي تتقلب تحت القاع من أقدام أباطرتها وملوكها، لا ترى في السماء سلطانا غير سلطانهم، ولا تعرف حافزا للعمل في الأرض إلا حافز الطاعة لهم. والتسابق بهذه الطاعة إلى فتات موائدهم، وإلى نعمة الرضى من كهنتهم، وإلى متعة الحياة على حافة نهر الخمر، وبحر الأساطير، كما ينبع ذلك ويجري من قصورهم، ومعابدهم، وديانـاتهم.. فأي قصص كان عن هذه الشعوب التي تعيش الموت، وتضحك للعذاب، وتصفق للذل – يمكن أن تنفع ذكراه المؤمنين إذا جاء به القرآن!؟

لقد كان جليا أن قصص القرآن الكريم، وقد جاء لتذكير الغافل بلسانه المبين إلى تاريخ آبائه في قصة الدين الإلهي وليس الوضعي – لم يذكر شيئا من التاريخ أو القصص أو الأخبار – ولا كلمة – عن حياة الفرس أو اليونان أو البيزنطيين، الذين شغلوا كل كتب التاريخ الأوروبي.. إنه لم يذكر اسما لكسرى، ولا سيما لقيصر.. إنه لم يشر إلى أية عاصمة باذخة قام بذخها على مجاعة المستضعفين والمستعبدين والفلاحين، من عواصم أو مدن الفرس مثل المدائن والقادسية ونهاوند.. أو من تلك المدن المغلقة على علوم اليهود السرية وفلسفات اليونان الوهمية، والمدفونة عند

تلك الحدود الفاصلة بين فارس والروم على أرض العرب مثل "جنديسابور" جنوبي نهر دجلة، ومثل "نصيبين" ما بين دجلة والفرات شمال الموصل، ومثل "الرقة" على نهر الفرات على مقربة من "صفين" وشرقي "حلب".. ومثل "الرها" شمال الرقة على أحد نهيرات الفرات.. أو "سلمية" أو سلاميس سابقا شرقي نهر العاصي ما بين حلب وحماه، وكر القرامطة قديما والأغاخانية الإسماعيلية حديثا.

لقد كان ما يجري في هذه المدن قديما، وما لا يزال يجري فيها وفي غيرها حديثا، من أخلاط المعارف السرية والسحرية المغلقة على تنظيماتها، ومن أوهام تحريك القوى الخفية، وتسخير الجن والأرواح، وتجنيد الآلهة المزعومة لفعل المستحيلات، وزرع الباطل، واستعباد البشر – هو ذروة ما وصلت إليه تلك الشعوب من أشكال مفاهيمها "الخاصة" وخلاصات "فلسفاتها" المحجبة وصكوك مهاناتها وأساطيرها الأبدية.. فأي ذكر لهؤلاء في هذه المدن، أو حديث عن هذه المدن من أجل هؤلاء، الذين هم باسم المعرفة المستمدة من "العقل" تحت مستوى الفهم أو العقل.. كيف يمكن أن يكون في قصص القرآن الكريم – حديث عن هؤلاء وما يزعمون – فيه ذكر لغافل، أو تذكير لمتدبر.. وهم على مستوى نظر من كان ينظر إليهم من العرب في أسفارهم ورحلاتهم بين الشام واليمن، والعراق ومصر – عبرة ظاهرة لمن ينظر فيرى رأي العين عقولا مصلوبة، وشعوبا مغلوبة، ومصائر متدافعة، على منحدر الوثنية والعجمة، وإلى هاوية القهر والضياع.

كان قصص القرآن إذن – ولا يزال – لمن يسمع ويعي .. كان لمن يبدأ وعي التاريخ بتاريخ الدين، وتحيا حياته بحياة الدين، وفي هذا لم يكن القرآن والنبي والدعوة من "الله" إلى من يقيمون حول "بيت الله"

مفاجأة لقريش، ولا للعرب.. لقد كانوا وهم يستمسكون بحنيفية إبراهيم، ويرفضون النصرانية التي يقول غلاتها بالوهية المسيح، ويرفضون اليهودية التي تحرف كلام الله وتتخذ من أحبارها أربابا من دون الله – ينتظرون رسولا منهم، وكتابا من الله لهم، يكون فيه القول الفصل، ويظهر به الدين الحق، فلما ظهر النبي، ونزل الكتاب، تثاقل عنه بعض أهل الأموال من قريش، وتحاسد فيه على "النبوة" بعض من كانوا يقتسمون منهم شرف المآثر والمكارم حول البيت، وهم يسقون الحجيج، ويطعمون، ويرفدون، ويحملون اللواء ويسدنون الكعبة، فماذا يكون لهم من الشرف بعد النبوة.. وهم أخوة يتسابقون منذ إسماعيل على الشرف، ويتكافأون في الظفر به؟ .. ولكنهم لم يلبثوا أن آمنوا جميعا بهذا الحق من الله إليهم.. الحق الذي لا ينكرون أنه قد جاء آباءهم من قبل.. وأنه حين يجيئهم لا يجئ به رجل غريب عنهم، أو مجهول منهم.. وفي هذا يقول القرآن ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ● أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾.

إنه إذن دينهم، ودين آبائهم، وهم دعاته في الأرض عملا به، وأسوة فيه، وهكذا فما كان القرآن في عظمتهم وتذكيرهم هم ليتناول في قصصه إليهم إلا أخبار هذه الأمم التي ملكت بالحرية، والسواسية، والبيان أسباب النعمة بالإيمان، ولزمتها حجة الله الذي أنعم عليها بهذا الإيمان، قولا وعملا، واعتقادا وحكما، كما ورد ذكر هؤلاء الذين جاءهم الرسل بالبينات، فأنجى الله المؤمنين، وأخذ بعذابه المستكبرين.

نعم.. إنه دينهم الذي انتبهوا إليه بقوة ما في القرآن من الذكر، وصدق ما واجههم به النبي من الحلم، ولو لم يفعلوا لذهبوا في غيابة النسيان، وذابوا إلا الظل المنحسر، والوهم الزائل.. خلود بأسمائهم في

كتاب الله.. إلا هذه الإشارة إليهم فيما اقترفوه من إثم، وما تشبثوا به من وهم..!

هكذا لم نعرف اسم فرعون موسى الذي لم يحمل أكثر من لقب طغيانه. وهكذا لم نعرف اسم الملك الذي رأى في مصر "سبع بقرات سمان" في قصة يوسف، كما لم نعرف اسم ذلك الملك الذي كان "يأخذ كل سفينة غصبا" في قصة موسى وصاحبه.

كذلك – وهو في غير قصص القرآن يكون مثيرا جدا ومسليا – لم نعرف اسم هذه الملكة من سبأ، والتي كانت "تملكهم وأوتيت من كل شيء" والتي وعت، لأنها من أرض الدعوة، ومهد الدين، هذه الحقيقية التي أكدها القرآن في قولها "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة".

نعم لم يذكر القرآن اسم هذه الملكة، وعندما وقع لقاؤها بالنبي سليمان ظهر مشهد اللقاء مبرأ في كمال الاعتبار بهذا التدافع بين الإيمان والكفر – من الإثارة، ونقيا نقاء خالصا من تبرج الكلمات، وعزيز المنال فوق التفاصيل العارضة والزائلة في حكم الزمان، وخصائص المكان، ليبقى "الفعل" أو "الحدث" هو الإيماءة المشرقة بالقانون، وحتى يكون قول الإنسان – ملكا أو سوقة، وجنًا كان أو إنسا – هو محض الدلالة على الفعل وقانونه.. بذلك تبقى العظة والعبرة والحقيقية في سنن الله خالدة في قرآنها، وعصرية الحياة داخل إيقاعها، وهي تتجلى على قلوب البشر وأسماعهم في برهان إلهي، وصوت بشري.

ولئن كان القرآن قد ذكر من أسماء الملوك "طالوت" من بني إسرائيل، فلقد كان ذلك لأنه كان ملكا مؤمنا يتبع نبيا مؤمنا، وكان انتصار طالوت في القصة مثالا من آيات رحمة الله التي جحدوها بنو

إسرائيل. وهكذا اقتضى ظهور اسم طالوت أن يظهر اسم خصمه وهو ملك آخر من وزن ملوك بني إسرائيل المولعين على توهمهم وراثة الأنبياء بألقاب الظلم والسطوة عند جيرانهم وسادتهم أحيانا.

ذو القرنين:

ومن الملوك المؤمنين الذين لم يذكر القرآن أسماءهم "ذو القرنين" الذي أشار إليه بصفته تدل عليه من صفات بدواته وهي "قرونه" أي "جدائله" بلغة البدو وعلى طريقتهم، حيث كان من عاداتهم ولا تزال فيهم إلى اليوم أن يرسلوا من شعورهم جديلتين أو أكثر، تجملا من جانب، وتوقيا لضربات السيوف من جانب آخر، في حروب الماضي، وحيث كانت الجدائل تضاف إلى الخوذة في وقاية الرأس والعنق.

فهذا الملك العربي "ذو القرنين" كما حققت تاريخه أبحاث كثيرة في تاريخ اليمن هو الملك الحميري "شمريهرعش" الذي ذكر المؤرخون العرب عنه – وكما أشار إلى ذلك جورجي زيدان في كتابه "العرب قبل الإسلام" – أنه وطئ أرض العجم وفارس وخراسان، وافتتح مدائنها، وخرب مدينة الصغد وراء نهر جيحون، وبنى هناك مدينة لا تزال تحمل اسمه إلى اليوم وهي "سمرقند".

وإذا كان بعض أصحاب الأهواء قد تباروا لينسبوا هذا الملك إلى أمة غير العرب، فقالوا هو الإسكندر، وقال آخرون بل هو أفريقس فاتح المغرب بإفريقية، وقالوا في عودة إلى اليمن وحمير بل هو "أسعد أبو كرب".. فإن أعجب ما نشط الإيرانيون إلى ترويجه في العصر الحديث هو الزعم بأن هذا الملك هو "كورش" الفارسي.. المؤمن بالله وليس بالناروزرادشت.. ثم تضخم هذا الزعم فقالوا وقال صنائعهم بل هو "نبي"!

وهكذا لم يلبث شيعة الهند أن رددوا هذا الزعم على لسان أحد متكلميهم وهو "أبو الكلام أزاد" الذي نفى بشدة أن يكون ذو القرنين هو ملك آخر غير الملك "الصالح" كورش الفارسي!

ولكن الحقيقة التي لا يكن طمسها وراء هذه الخرافة العصرية أن الملك كورش الفارسي – الذي يراد رغم أنفه تغيير هويته التاريخية في نفس العصر الذي يراد فيه زرع إسرائيل في أرض العرب، إنما هو الملك المتجبر الذي خرَّب بابل العراقية العربية، وأهم من ذلك في لغة الأحداث المعاصرة أنه هو الذي أعاد اليهود الذين كان الملك العربي نابوخد ناصر قد أسرهم ونفاهم إلى بابل سنة 586 ق.م، والذي استقبله اليهود عندما نجحت المفاوضة معهم لإعادتهم إلى فلسطين.. معظمين له كمنقذ لهم تحت سلطان الفرس.. كما يقول المؤرخ الأمريكي جيمس بريستد!

الملك الفارسي كورش ليس إذن هو ذا القرنين، وإنما هو "المخلص" الذي ظهر لليهود في ضائقة المنفى.. والذي يتحدثون عنه اليوم وهم يزيفون التاريخ في إطار العلاقات الودية بين إيران وإسرائيل على أنه أحد الأنبياء الأبرار.. ولكن من أرسله إلى من؟ .. لمن جاء؟.. ومن دعا.. وماذا قال.. وبأي لسان تكلم.. ولأي نار سجد..!؟.. فهذا ما لا يتحدثون عنه، ويكفي أن اليهود الذين أنكروا المسيح، وتمردوا على موسى، وخانوا الله، وعبدوا العجل.. قد منحوا الملك الفارسي كورش في ظل حلف الأطلسي وأهدافه.. رتبة نبي!!

أشهر النساء:

انفرد اسم "مريم" بالذكر في قصص القرآن الكريم من بين جميع النساء اللائي ذكرهن هذا القصص الحق، فلم يذكر القرآن في قصة

الخلق الأول اسم زوج آدم، وأم البشر، كذلك لم يذكر اسم واحدة من أمهات الأنبياء، أو زوجاتهم، إلا بالإشارة.

لقد كانت "مريم" فيما انفردت به في حياتها "منذورة" لعبادة الله و"محررة" له منذ طفولتها. ثم شاء الله أن تكون أما للمسيح تحمل به بأذن الله من غير رجل، وأن تتحمل بذلك طوال فترة حضانته عبء الاتهام الفادح من أهل الغباوة والقساوة. مع صدق البراءة، ونقاء النفس والجسد، وقلة النصير. ثم شاء الله أن تحمل بعد ذلك ما حملته بجوار ابنها حين نهض بدعوته وهي تتبعه كظله، وتشفق عليه – رغم الآيات – من شانئيه ومكذبيه.

لقد كانت مريم بكل ذلك، وبما لم نحط به علما من فضل الله ونعمته عليها، آية بشرية، يعلن عن قدرة الله فيها "قانون" من قوانين الله وسنته أدق مما ألفه الناس، وأبعد في نفاذه مما اعتاده الناس، وهي امرأة قد اكتمل فيها حملة واحدة، وفي آية عابرة شديدة الإشراق – بر الأبنة، ونقاء العذراء، وإيمان المؤمنة، وصبر المبتلاة، وحنان الأم، على أغرب مولود هو في طفولته آية، وفي شبابه آية، وفي كهولته آية.. ترعاه وحيدة به، ثم وحيدة معه، بين وحوش غادرة كاسرة من كهنة اليهود.. وجند الرومان.

ثم ذكر القرآن من النساء الصالحات أم مريم وذلك بنسبتها إلى زوجها وذلك في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ﴾ وكان ما في بطنها هو مريم.

وكذلك ذكر القرآن من الصالحات منسوبة إلى زوجها "امرأة فرعون" وذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ

فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأما غير الصالحات من النساء فقد جاء ذكرهن منسوبات كذلك إلى أزواجهن في قصص القرآن الذي ذكر منهن امرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة العزيز في مصر، وامرأة أبي لهب حمالة الحطب.

قانون الغواية:

قلنا أن قصص القرآن الكريم قد أظهر بأسماء الأنبياء قانون الدعوة إلى الله والهداية إلى الحق الذي يبقى، بعيدا عن الباطل الذي يبطل.. كما أنه حتى تبقى هذه الأسماء ظاهرة على أفقه الخالد، اكتفي بالإشارة إلى المؤمنين بأعمالهم التي حققوا بها قانون الاستجابة للدعوة الصحيحة، لقد ذكرهم في جموعهم تحت اسم "المؤمنين" أو "الذين آمنوا" كما ذكرهم بأعمالهم وأمانتهم وصفاتهم الزكية التي منها حبهم لله، وطاعتهم له ولرسوله، وبيعهم الحياة والأموال يجاهدون بها في سبيل الله تصديقا بكتبه ورسله، وبعثه وحسابه.

وكذلك فقد ورد ذكر الكافرين الذين عادوا لله والرسل بذكر أعمالهم كما ذكرهم بنقائصهم، وضعفهم، وحرصهم على الحياة، وكما ذكرهم بصائرهم المحتومة التي انتهوا إليها في كل الدعوات، وكل العصور.

يبقى من هذه القوانين التي جسدتها الأحداث في قصص القرآن الحق هذا القانون الذي يقابل قانون الدعوة في حياة الأنبياء وهو قانون الغواية المتمثل في قابلية الإنسان – ما لم يعتصم بالإيمان – لوسوسة شيطانه، وتحيرات نفسه، وغلبة هواة.

في قصص القرآن يظهر هذا القانون الذي يرمز إلى المعنى السلبي في إرادة الإنسان، والذي يظهر على خفائه في شكل المصدر الذي تتولد منه أغرب الصور والأصوات المضادة للفطرة، وللإيمان، وللعقل، من طريق التسلل إلى داخل النفس، والقدرة على أحداث أنواع الانشقاقات في إرادتها، وألوان التخلفات في أهوائها ورغباتها وشذوذها.. هذا القانون النشط في الإنسان يحمل في لغة القرآن وقصصه هذا الاسم الجامع لصفاته الفاعلة باتجاه الغواية وهو "إبليس" و"الشيطان"، وهما كلمتان عربيتان قديمتان قدم المهمة التي ينهض بها الشيطان في ابتلاء البشر.

أما كلمة "إبليس" فهي في اللغة العربية من "الإبلاس" أي "التحير" والمبلس هو المتحير، وإبليس بذلك هو صميم عمله صانع هذه الحيرة" أو هذا "الإبلاس" في نفس الإنسان كلما واجه الاختيار بين طريقين، وهي أي هذه الحيرة – لحظة الضعف القاتلة التي يتاح فيها لإبليس أن ينفث فيها "غوايته" ليختار المتحير به أقرب الطريقين إلى البعد عن الصواب!

وأما كلمة الشيطان فهي من "الشطن" وهو الحبل الطويل الذي يلقى به في أغوار البئر لرفع الماء به. وشطن الدلو: شده بهذا الحبل، وشطن الرجل صاحبه: خالفه عن نيته. ومن جملة هذه المعاني يكون معنى الشيطان أنه هذا "الوسواس" الذي ينزل به قانون الغواية في حياة الإنسان وفي نفسه لكي "يشطنه" أي يجذبه من أغوار نفسه إلى ما يخالف به نيته وفطرته في الصواب، وفي اختيار الأفضل وهو الإيمان، وأعمال الإيمان.

ولما كانت روية الواقع المتحرك كما هو، والإيمان بالحكمة والغاية وراء واقع هذا الوجود كما هو، والسعي إلى عمران هذه الأرض بالإحسان في مواردها، وبغير تظالم أهلها – هي خلاصة قانون الدعوة إلى الله، فإن قانون الغواية عن هذه الطريق تفتح الطريق الآخر لهذا المنحدر الذي

يتساقط عليه المبلسون والمتحيرون، بعيدا بأوهامهم، وأساطيرهم، وفلسفاتهم، وألوان عزائهم باللهو والمخدرات، والروايات والمسرحيات.. عن حياة الفطرة والإيمان بعطائها العصري دائما، والعلمي، والتقدمي، والإنساني، وهي تبني مجتمع المؤمنين.

حوار كل العصور:

بهذه السنن والقوانين في علم الإنسان، وعلم التاريخ، برزت أسماء الأنبياء، ورموز أخرى معهم، في قصص القرآن الكريم، عنوانا على مشرق هذه القوانين وتعاقبها، وتحركها، حركة شموس الفضاء المضيئة، وكواكبها المعتمة، وشهبها الساقطة، كما أجراها الله في تلاحقها المتسق، ونظامها الوثيق ليتأكد بهذا التقنين الإلهي للبشر من خلال أحداث حقيقية – أن الله قد أنطق هذه القوانين بأصوات الأنبياء في سمع الأجيال لتسمع، كلما استطاعت أن تسمع، إلى دعوة الله مقننة بصدقها البياني والعلمي والتاريخي في قصص حق، وصادق، صدق القوانين النافذة.

من أجل هذا كان منطق هؤلاء البشر في قصص القرآن، وهم يتكلمون بأصوات ودلالات القوانين التي يمثلونها بين الدعوة والاستجابة، وبين الرفض والغواية – هو المنطق العام الذي يتكرر به من خلال تكرر وتنوع الأحداث في مختبر الحياة الإنسانية – تأكيد صحة النتائج والمقررات العلمية عن مصير الإنسان والمجتمع، كما تلقي عليها الضوء من جميع زوايا الأحداث – هذه القوانين الناطقة على ألسنة هؤلاء البشر "المقننين" في علم الإنسان وقصصه من الأنبياء وغيرهم.

الحوار أو التحاور في قصص القرآن الكريم ليس بهذه الرؤية العلمية مجرد أحاديث أفراد عن الهدى والضلال في نطاق رؤية الفرد كما هو في

القصص التاريخي والأخبار، وليس هو هذه الصناعة للمواقف وفن تخليق الكلمات اللولبية، وإطلاق العبارات الرنانة كما هو في القصص الخيالي، وإنما الحوار في قصص القرآن هو في ضوء الشمول الألهي، وسنن الله الهادية كلام أوحى الله به على ألسنه الأنبياء وغيرهم ليكون في الأخبار عما وقع منهم في مراحل الدعوات السابقة وعصورها، وبأكثر من لهجة من لهجات اللغة العربية هو تقنين حصيلة الصدق في كل ما وقع منهم تقنينا شاملا تصبح به لغة الحوار باللسان العربي المبين صدقا حيا، بالغ القصد والإيجاز والبيان، ويصبح به الحوار بهذا التقنين الشامل للأحداث ودلالاتها في علم الإنسان، وعلم التاريخ حوار لكل العصور. ولكل الأجيال والشعوب، وهو يعلو في القرآن الخالد والمشع فوق قيد التفاصيل، وحدود الزمان والمكان، ليبقى في سمع الدهر الإنساني خالدا ومسموعا، وبشيرا ونذيرا، لكل من ألقى السمع وهو شهيد.

ولئن كان حوار المتكلمين في قصص القرآن شاهدا كله على أنه بصدقه البياني والعلمي والتقديم هو الحديث الموجه لكل العصور، والحوار المعبر عن دلالاته الإنسانية في كل المواقف المشابهة عبر كل التاريخ، فإننا نكتفي هنا بضرب الأمثلة – دون التقصي – ونحن نؤكد هذا المنهج القرآني الذي ما كان لغير الله في علمه وحكمته ورحمته أن يبلغ إليه.

في حديث نوح إلى قومه وقد استغرق من أشكال المجاهدة والإصرار سنوات وسنوات طويلة – عرض القرآن لبضعة مواقف توجز في أقوال مقننة تصادم موقف الدعوة بموقف الرفض. أما الدعوة ففيها الإشفاق وصدق النصح ورجاء الاستجابة، وأما الرفض ففيه الاستكبار، ووضع الأصابع في الآذان، واستغشاء الثياب حتى لا يسمعوا ما يقول نوح.

فمن مجموع مشاهد بغير عدد، وكلمات بغير حصر، وألوان من الإلغاء المباشر فوق الحساب في سنوات طويلة يبسطها أمامنا عمر نوح الطويل – أجمل القرآن الكريم جملة هذه اللقاءات العديدة بين نوح، الناطق بقانون الدعوة المضيء، والمنبئ بحكم النبوة الجلي" – وبين قومه الذين تجسد في أقوالهم وأفعالهم قانون الرفض المعتم، وحكم الانفصام القاهر.. أجملها القرآن في مواقف قليلة، لم يتحدد لها زمن بموعده، أو مكان حدودوه، وحيث يوجز القرآن بيان الصدام بين الطرفين في حوارهما كما يوجزه تصادم السحب الثقال في برق ورعد، فلا يدري أحد إلا الله ما بعد ذلك من غيث.. أو سيل.

في أحد هذه المواقف يقول نوح لقومه في حواره معهم كما يقص القرآن ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ نفس هذا النص يظهر في حوار هود مع قومه عاد وذلك كما يقص القرآن عنه ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ونفس هذا النص يرد في حوار صالح مع قومه ثمود حيث يقص القرآن من قصصهم قوله ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ • إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

ونفس هذا النص يرد في حوار شعيب مع قومه من أهل مدين في قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

هذه الآيات بنصها الواحد، وبمفردات هذا النص الأساسية في جميع أحاديث الأنبياء إلى أقوامهم تؤكد بإيقاعها المتتابع وحدة أركان الدعوة

في سنن الله التي تحكمها. فهذه الآيات بنصها العربي القرآن لم تجر هكذا في أحاديث الأنبياء إلى أقوامهم خلال عصور متفاوتة، ولهجات متباينة، وفي فترات جهاد ومواجهات طويلة، ولكنها بكل الصدق البياني، والصدق العلمي والصدق التاريخي، كانت هكذا تماما عندما ينزل بها الوحي قرآنا في صورة القانون العام للدعوة، وعندما تصبح في القرآن: حوارا لكل العصور، وحديثا ودعوة إلى كل الشعوب، وإلى من تضمهم هذه الشعوب من جهات الرفض والاستكبار، منقاة وخالصة من أثقال تفاصيلها، ومن أوزار اللغو في ألسنة ومفهومات جماعاتها، كاملة ومستكملة في بيانها القاصد المشرق كل أركان الدعوة، وكل دلالات الحدث والفعل – رفضا أو استجابة – في أخبارها ومصائر أقوامها.

إن هذه الصيغة المكررة من الحوار الموجه على ألسنة الأنبياء لكل عصر، ولكل جماعة منشقة أو مشتتة عن دينها وإيمانها تبدأ – كما ترى – بمقدمة التنبيه الرفيق لهؤلاء المدعويين، إلى أنهم قد تجاوزا الحد في الترف والغفلة عن ذكر الله، وأن ما تراكم عليهم من الذنوب المنذرة بغضب الله يوجب عليهم المبادرة إلى اتقاء ذلك.. يوجب التقوى.

هذا التنبيه في قوله تعالى ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ .. هو الإشارة الأولى إلى حركة التقويم والتصحيح في حياة المدعويين، الذين كانوا يعرفون الله المنعم عليهم، ويعبدونه، ثم غفلوا عنه إلى آلهة موضوعة، وأهواء متبعة.. إن هذا النداء ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ هو الشعاع الأول النافذ من شمس الرسالة والدعوة. إنها يد تمتد بالكلمة المدوية لتقول وهي تحجز هذا السيل المندفع في مغاضبة الله ومعصيته.. لتقول في تأنيب حازم، ورفق زاجر: "أما آن لكم بعد.. أن تكفوا عما أنتم فيه من الإنحراف؟".

ومن ثم تبدأ الحقيقة الأساسية في شرعية الداعي وهي ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أي إنني أقول لكم هذا، وأنا أخوكم، فلا سلطان أدعيه عليكم، وإنما أنا ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ .. وصادق كما تعلمون.. رسول من الله الذي هو الحاكم عليكم، والمولى فوقكم، والذي أرسلني بهذا الحق لهدايتكم.

وترتيبا على هذه الشرعية والأمانة في الدعوة يلخص أخوهم، والرسول من الله لهدايتهم، هذه الرسالة كلها، والرسالات السابقة عليها، في كلمتين في نص الآية حيث يقول ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾.

أما "التقوى" فإنها الركن الأول للإسلام بعد الإيمان. التقوى هي مع أول الانتباه والتذكر لحق الله والإيمان به أول الخشية لله المحسن والمنعم والقادر وذلك بالميل عما لا يرضيه، أي المبادرة بانتقاء الوقوع فيما حرمه الله من الحرام.. وما نهى الله عنه من المنكر.

إن التقوى – في هذا الأمر الأول إلى الإيمان والإسلام – تمثل في المعادلة الدينية إيمانا وعملا قانون "الميل عن الميل" وبذلك تتحدد طبيعة "الاستقامة".. إنها – أي التقوى – تصور نشاط الحركة الصحيحة في النفس التي استيقظت في غفلاتها على النذير لترفض "الرفض" لدعوة الإيمان، وبذلك ينفتح له طريق الطاعة والمجاهدة والإسلام.

إن هذا القانون الذي تمثله "التقوى" بأسبقيتها في مجال "الاستجابة" تشرح وتوضح في شعار الإسلام الخالد "لا إله إلا الله" كيف أن النفي "لا" لجميع الآلهة الكاذبة، والفلسفات المبتدعة، والمتاهات والطرق المعتمة – هو وحده الطريق إلى "الإثبات" الذي لا شبهة فيه لهذا الطريق الأزلي والأبدي والمستقيم مع الله الحق، إيمانا وعملا، وتصديقا بالغيب وجهادا.

نعم.. إن الركن الأول في نص الحوار المتكرر بين الأنبياء وأقرامهم وهو "التقوى" إنما هو الركن الأساسي لصحة "الطاعة" للأنبياء فيما أمرهم الله بتبليغه من غيبه وشرائعه، وهو الركن المتكامل مع نص الآية الموجهة بمعناها ودلالاتها إلى كل العصور: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

"التقوى" إذن هي خشية الله المانعة من الكبائر والصغائر بعد إخلاص العبادة لله وحده، وأما "الطاعة" فهي الإقبال بعد النقاء والتحرر من الكبرياء والكبائر والصغائر على جميع مبادرات الإيمان، وأحكام شرائعه، في مقاسمة الأموال مع أصحاب الحق فيها، وعمارة الأرض بالأعمال المشروعة التي يقودها ابتغاء وجه الله، في الشكر على نعمه، وإقامة العدل، وتنمية الجمعة بالعلم، وتكافؤ المسئولية، وبالسواسية في الجهد من أجل الجماعة، ومع الجماعة، بحسب الحق، وبحسب الجهد.

بهذه الأركان التي أقامها حوار الأنبياء المباشر – كما قننه قصص القرآن محكوما بظروفه الزمانية والمكانية واللغوية – يرتفع هذا الحوار على ألسنتهم بالصدق الكلي في هذا القصص الحق إلى مستوى الشمول في القانون العام للدعوة إلى الله، ويصبح بذلك كما شاء الله في آيته الكبرى بالقرآن حوارا لكل العصور، ولكل الشعوب والأجيال، ومهما اختلفت ظروف البشر الموضوعية من عصر إلى آخر.

النفي والإثبات:

كذلك تأكد في أكثر من موقف في قصص الأنبياء وحوارهم بالقرآن قانون النفي للآلهة الكاذبة، التي لا حصر لها في مجموع الأسماء البشرية، أو أرواح الطبيعة، أو الأفكار المخترعة، أو الأهواء القاهرة، وذلك حتى تثبت بكل الإخلاص والتجرد حقيقة الإله الواحد الحق، وفي

مثل هذا يقص القرآن من قول هود إلى قومه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ﴾.

وكما يقص القرآن عن قوم صالح إلى ثمود ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ وكذلك قول شعيب إلى مدين ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾.

وفي مثل هذا النفي للإثبات يقول يونس في دعائه إلى الله ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ﴾ وهو ما استقر في يمين المسلمين من أن الشهادة بالله الحق لا تثبت إلا بنفي ما عداه، فلا يقول المسلم ابتداء "هو الله" بل يشهد كما شهد الله بهذا النفي المثبت في قوله تعالى ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

بهذا النفي تتعادل – كما ذكرنا – على أساس المقابلة الحتمية حركة رفض الإيمان بين المشركين والملحدين مع حركة نفي المؤمنين لكل أسباب الشرك وأقوال الإلحاد، وهم يؤكدون بأعمالهم هذا التدافع الذي تجري به سنن التاريخ، وقوانين الله، على طرق الأفراد والشعوب بين الهدى والضلال.

إن نفي الآلهة الكاذبة لإثبات الإله الحق هو شاهد الصدق في المعادلة الدينية التي يتم بها ويستمر جهاد المؤمن اليومي، وأمام كل سؤال أو اختيار، لكي ينفي الباطل الذي يبطل، وبذلك يثبت الحق الذي يبقى، وذلك من خلال هذه اليقظة المستمرة ببرهانها العملي في السلوك حين يقول

المؤمن بقلبه ولسانه وعمله "لا" للباطل وآلهته وأكاذيبه، ويقول "نعم" للحق وإلهه الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو.

إنه بهذا النفي في قول المؤمن "لا" حتى يصح له بكل صدقه وجهده أن يقول "نعم" يظهر في السلوك اليومي للمؤمنين، وفي الأسوة الظاهرة أمام المجتمع، هذا الارتباط الحي بقوانين الدعوة وأركانها لكي يحقق المؤمنون داخل مجتمعهم "تغيرهم" الدائم عن طرق الباطل وغوايته، من أجل أن "لا يتغيروا" عن طريق الحق وغايته.. وهذا هو الثبات الذي يجاهد له المؤمن حتى يبقى في حياته وعمله تعبيرا حيا عن قانون الاستجابة لدعوة الأنبياء وحتى لا يتحطم وينقصم داخل نفسه، فيصبح لسانه مع الإيمان، وقلبه وعمله مع الكفر، والضلالة والهوان.

سقوط الطواغيت:

كذلك فإن حوار الأنبياء مع أقوامهم كما يقص عنهم قصص القرآن الكريم يكشف عن هذا القانون الذي يقدمه في علم الإنسان وعلم الإيمان في هذا الحوار الموجه لكل العصور، وكل الشعوب، وهو قانون سقوط الطغيان بكل أشكاله ورجاله ونظمه، كلما استقر الإيمان بيقينه وعمله في جماعة أو مجتمع وذلك حيث يقول الله في غاية كل الرسالات التي أرسل بها إلى الأمم السابقة على أرض الدين ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ ﴾.

فهذا القانون هو صورة واضحة لآثار قانون النفي للألهة الكاذبة يلخص في الحوار الموجه من الأنبياء إلى أقوامهم أصدق النتائج التي أسفرت عنها جميع التجارب الاجتماعية البشرية عبر كل العصور، والتي تؤكد

أن الحكم الطبقي الطغياني بأي شكل من أشكاله الغليظة السافرة، أو الضاغطة المقنعة هو البديل الوحيد لحكم السواسية والمقاسمة والعدل والرخاء والإسلام كلما استقر للجماعة أو للمجتمع إيمان صادق بالله، وحكم نافذ بشريعته، ويقين ظاهر ببعثه وحسابه.

إنه بهذا المعنى من قيام حكم الإيمان والشرع تتقرر مع الدين الحق، ومع الإيمان بالله الواحد، جميع "حقوق الإنسان" التي أحياها وعاش بها المجتمع الإسلامي قرونا طويلة، والتي عندما نقلها الغرب عن المسلمين – حول القرن السادس عشر – تقليدا بغير إيمان، ومحاكاة بغير صدق، فقد ظلت ترجمته لهذه الحقوق عن العرب المسلمين مجرد شعارات سياسية، و"أوهام مسرحية" في حياة الدول العظمى بقوتها العسكرية، والتي تذبح بعدوانها هذه الحقوق قربانا لفسادها الداخلي، وعدوانها الخارجي، صباح كل نهار، ومساء كل ليل.

نعم.. بهذا النص القرآني المشترك في حوار الأنبياء لكل العصور عن إحلال الإيمان الحق، بالله الحق، محل الرضوخ لأنواع "الطواغيت" الكثيرة التي لم تتخلق بأشكالها القبيحة إلا في بطون الفلسفات، وليالي الغفلات.. بهذا النص القرآني يتأكد في حياة البشر هذا القانون المسيطر على مصائرهم، والمميز لطبيعة ما في أقوالهم وأعمالهم من نور أو ظلمة، ومن هداية أو ضلالة، وهو في المعادلة الدينية يمضي هكذا عبر كل العصور "إذا حكم الله سقط الطواغيت".

الإنابة إلى الله:

وكذلك في هذا الحوار الذي أحكمه الله في القصص القرآني على مثال القوانين الناطقة باللسان العربي المبين – نجد هذه الأحكام المحكمة

في أسوة الإنابة إلى الله على شتى الصور، وفي مختلف المواقف، يقدمها القرآن عن الأنبياء أنفسهم لتكتمل في حياة المؤمنين مسيرة القوانين الهادية، وهي تمتد إليهم في المواقف الصعبة، ومآزق النفس مع الله، كما تمتد يد رحيمة ترشد إلى الإنابة إليه، وتصرف عن الغي ومتابعة الهوى، وتهدي إلى سواء السبيل.

ففي حوار الأنبياء مع أنفسهم منيبين إلى الله يقول موسى بعد أن قتل نفسا بغير حق ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾.

ويقول يوسف في حواره مع من راودته عن نفسها ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ .. أي أنه يعود بالله من كفران نعمة من آواه إلى بيته، وهو كفران أعظم بنعمة الله الذي أواه بالهداية إليه.

ويقول المسيح في حديثه إلى الله في مشهد التبرؤ مما ادعاه عليه بعض من اتبعوه ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾.

ويقول محمد في مجاهدته لقومه وهو يستنهضهم بما في نفوسهم من حب الله ليقبلوا على إتباعه وطاعة الله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ● قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

في هذه الكلمات الفاصلة في المواقف الصعبة نجد استغفار الله من ظلم النفس، وتجد الاستعاذة بالله من الغواية وكفران النعمة، ونجد

الوقوف بين يدي الله موقف الصدق إقرارا بنعمه، وتبرؤا من تجاوز الحق في عبادته، ونجد اعتبار الحب الخاص لله هو مفهوم العبادة، وهو حافز العمل والطاعة، وأنه بهذا الاعتبار يكون غضب الله على الكافرين – بديلا من حبهم – هو أقسى عليهم من محق أعمالهم، ومما أعده لهم من عذابهم.

في ذلك وفي مثله من كلمات الأنبياء الفاصلة في حوارهم النفسي مع الله، على مشهد ومسمع من المؤمنين في قصص القرآن، وعبر كل العصور، يجد المؤمنون على الدوام هذا الظل الذي يفيئون إليه في كل ضائقة، حيث يثوب إليهم بهذه الكلمات ما عزب من الرشد، وينفرج ما تعقد من المواقف والأزمات، وحيث يجدون في ساعة العسرة، ولحظة الشدة، هذا الضوء والعزم والطريق.. إلى الله.

هذا هو قصص القرآن الحق بوحيه الخالد، وصدقه المبين، وحواره المقنن والموجه لكل العصور، ولكل البشر، يعطي وهو يعلو ويشرق عطاء الرشد للإنسان، ويجدد وينمي حياة الإيمان لأمة العرب، وللمسلمين الناطقين بلغة العرب.. بينما هناك بعيدا وقريبا، تحت أطباق ظلام، وموجات هذيان وارتعاشات صرع – يتناقل الهيلينيون، وأخلافهم المعاصرون، من المتمجدين بثمار الغزو الفكري الأوروبي للوطن العربي – خرافات شعوب وثنية مخمورة، قصصها منحوتة من صخر، ومنسوجة من وساوس، ومتلوية بآلام، وصارخة في أغوار العجز والشتات واليأس على ألسنة أشباح أو أبطال حوارهم ينز إثما: ويخور غربة، ويتخبط مسا، ويتساقط عدما.. بينما وهذه الآداب الكحولية تلفظ أنفاسها في العالم، يموت إنسانها إنسانيا، وحضاريا، وهو يتشبث كالغريق بأكذوبته في عقيدة الصراع.. الصراع بين الإنسان والآلهة بين الإنسان وقدره.. بين هذا

الإنسان الأوروبي القديم والحديث وبين حركة الوجود وسننه المحيطة به، والفعالة فيه.. الوجود الذي لم يستطع أن يفسره إلى اليوم بالإيمان.

حوار الأغلال:

وهكذا، في مثل ذلك التفسير الوثني للحياة والخلود، نقرأ مثل هذا الهراء الذي لا يخجلون منه في أعمال عمالقة المسرح اليوناني.. والذي لا يزال يتجدد في الآداب المغمورة إلى اليوم.. والذي لم يكن في حقيقته يزيد عن اعترافات تهم الباحثين في علوم النفس المنفصمة، ليكشفوا عن جذور العقد والنقائص العقلية، والانشطارات النفسية، في مأثمة المذابح والشذوذ والخمر والابتذال.

نعم... في واحدة من ثلاثية اسخيلوس عن بروميثيوس رمز الإنسان في الأساطير اليونانية يقول هذا القطب المسرحي الذي لم يكن يكتب كتبه – كما يقال – إلا مخمورا تماما .. يقول هذا القطب في مفهوم الإنسان اليوناني داخل حوار الأغلال والاستصراخات وسط حياة تموت، وذلك في رواية "بروميثيوس المصفد":

* هاأنذا مصفد في مكاني.. أنا إليه منكود الطالع..!

* هاأنذا أناصب زيوس العداء..

* ويمقتني كل من تناله قوته، وهو القادر على كل شيء..!

* ذنبي عند زيوس أني شديد الحب للإنسان!!

وفي مسرحية اليكترا ليوريبيدس وهي شبيهة في شذوذ الجريمة، وقتل ذوي القربى، بمثيلات لها في مسرحيات اسخيلوس وسوفوكليس – يجري هذا الحوار اليكترا وأورستيس حول قتل أمهما:

أورستيس – ماذا نفعل؟ .. أمنا.. هل نقتلها؟

الكترا – ماذا.. هل خشيت إذ رأيت صورة أمك..؟

أوستيس – ويحي .. كيف أستطيع قتلها.. تلك التي أرضعتني وحملتني؟

أليكترا – كما قتلت هي أباك وأبي..!

أورستيس – أي فيبوس.. يا لها من حماقة زائدة!

اليكترا – لكن إذا أخطأ أبولو .. فمن يصيب؟

أورستيس – ذاك الذي أمرني أن أقتل أمي.. على غير طبيعة الأمور!

وننتقل من أصداء هذا العفن الوثني، المخضب بذكرى العدوان الهيليني على الوطن العربي، والمثقل بالشذوذ، والفصام، وتهيآت السكارى – إلى مرحلة أقرب إلى عصرنا في القرن السابع عشر لنقدم هذه الفقرة التي تحمل نفس التخبطات الوثنية، والولع بالشذوذ، والابتذال الهابط الذي لا يعرف الحرمات، وذلك في قصة إغريقية بعد مسرحتها بالذوق الفرنسي على نفسي الجذور اليونانية بخيال جان راسين، وهي قصة فيدر التي عشقت ابن زوجها الملك.

أونون مربية فيدر – أنت تحبين.. وليس في يد الإنسان أن يقهر مصيره

* لقد وقعت تحت تأثير سحر القدر المشئوم..

* فهل هي أعجوبة إذن لم نسمع بها من قبل؟

* أيتها المخلوقة الفانية تحمل مصير المخلوق الفاني..

* منذ عهد بعيد وأنت تثنين من نير محتم!

* الآلهة أنفسهم وسكنو الأوليمب..

* الذين يخيفون الآثمين بصوت هائل..

* قد اكتووا أحيانا بنيران حب أثيم..!!!

وهكذا... وهكذا... نفس هذا الهذيان الذي تنحدر به على منحدرات الشذوذ الوعرة كلمات عن الآلهة، وتتساقط الآدمية المستعبدة لشهواتها، ليتسرب ذلك من عصر الوثنية بنفس غوايته ورعدات إثمه إلى عصر المسيحية في أوروبا.. ومع الغزو الأوروبي للوطن العربي بالحراب، ثم بالكتب والأفكار، ثم بخطط وأموال مدارس الإرساليات الأجنبية – تظهر اللوثة نفسها في ترويج قصص يوناني مكتوب باللغة العربية يستقبل بوجهه الأوليمب.. ويسجد لآلهتها.. وأساطيرها.. وينفصل عن واقعه معها!!

القصص دين:

هذا القصص القرآني الحق بكل هذه الخصائص التي تجعله في قلب إشعاع الدعوة إضاءة باهرة وخالدة على القوانين التي تحكم النوع الإنساني من خلال الفعل والحدث، بعيدا عن التفاصيل الزائلة، وعن قيد الزمان والمكان – تجعله في بيان القرآن من الدين الذي يوجه المؤمنين إلى تصور الإنسان السوي في مفهوم القرآن، وكما يرضى الله عنه، مع القدرة على التأسي بهذا الإنسان، والتحول إليه، والسير على آثاره.. قصصًا.

القصص القرآني، وجميع القصص الذي يقوده ويوجهه القرآن في آداب اللغة العربية، هو من الدين صدقه، ومنهجه، وأهدافه.. وأعظم ما يميزه عن غيره أنه يخلص إلى العظة في الخبر الذي يقصه، وإلى العلم الذي يستخلصه من الخبر، وإلى الآية المضيئة التي يرفعها أمام عين المؤمنين، دون أن يتعرض القارئ أو المنصت إلى ما يثير غريزته، أو إلى ما يستفزه

لخيال كاذب، أو خاطر معيب، وإنما هو بما يقرأ أو يسمع لا يعلق به من مشاهد النزاع بين الحق والهوى في حياة الإنسان، ومخاضات فتنته – إلا برد الطهر وسلامه، وصوت العصمة ورحمتها..

وحتى يمكن لنا القياس بين كمال الأداء القرآني في أحد هذه المشاهد الشديدة القابلة للإثارة، والتي قد تعكس العظة فتجعلها غواية – كما هو شأن جميع الاثارات المتعمدة في القصص المختلق والموضوع – وبين نفس المشهد كما يعرضه كتاب آخر من عند الله هو التوراة، ولكن جرى عليه التحريف البشري، ففقد المشهد طابعه في القصص الديني الحق، وتزعزعت فيه عظته الإلهية، وتسلل إليه من نبضات الإثارة العكسية للعظة ما جعل هذا المشهد مصدرا للإيحاء بكثير من قصص الفتنة، وأعمالها الفنية الأخرى في أوروبا.. حيث تحول أكثر ما في "الكتاب المقدس" بعهديه.. إلى تجارة للعابثين.

نعرض هنا بإيجاز المشهد الذي جرى به امتحان "يوسف" قبل نبوته في بيت العزيز، كما عرضه القرآن بأدق أحداثه، وبالكلمات المطهرة والمبينة عنه داخل مشهد فيه امرأة مثل فيدر.. وملك كريم.. وفراش!! سنعرض لهذا المشهد الشهير في قصة يوسف كما لا يزال يقدمه القرآن مثالا كريما لقرآن كريم وقصص كريم.. في مقابل نفس المشهد كما يعرضه العهد القديم في أيدي اليهود.

يقول الله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ • وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ • وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

هذا المشهد بعينه تقدمه التوراة بأيدي الأحبار كما يلي جياشا بنبضات الإثارة، وخافتا في مفهوم العبرة.. تقول التوراة:

"وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت اضطجع معي. فأبى وقال لامرأة سيده هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت، وكل ماله دفعه إلى يدي. ليس هو في هذا البيت أعظم مني. ولم يمسك شيئا عني غيرك لإنك امرأته. فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله. وكان إذا كلمت يوسف يوما فيوما أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله، ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت، فأمسكته بثوبه وقالت اضطجع معي. فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة أنظروا قد جاء إلينا برجل عبراني يداعبنا. دخل إلي ليضجع معي فصرخت بصوت عظيم.."

في ضوء هذه المقارنة في مشهد من المشاهد المشتركة بين القرآن والتوراة التي تدخل في نصوصها الأحبار، نتبين إلى أي حد يبلغ قصص القرآن حد الكمال في أداء المعنى إلى النفس، مهما اختلفت أحوالها وعصورها، منزها عن التفاصيل المعوقة، وعن أي ثغرة تنفذ منها الإثارة، أو ينبثق الأثر العكسي على نفس الإنسان.

ونستدل على ذلك بعد المثال السابق بشاهدين أولهما أن قصص القرآن بلغ في النفس العربية نهاية ما أمكن من تأثير كلام في نفس،

فوعى العرب فضائل القرآن وعظاته وغاياته، وجعلوا من أنفسهم صورا حية للمثل الكامل فيه ولم يتم هذا التأثر لأمة التوراة، أو غيرها بأي كتاب في يوم من الأيام.

والشاهد الآخر أن العرب المسلمين لم يشعروا مطلقا بشيء من نقص المعنى في النسق القصصي للقرآن، فلم يخطر في بالهم في يوم من الأيام، وإن كان قد خطر للشعوبيين من بعدهم – أن موقفا من المواقف في قصة من القصص يحتاج إلى تفسير، أو تكملة، أو تفصيل، ولهذا – في غير كتب التفاسير التي حشدها الشعوبيون بالإسرائيليات – لم تنشأ بينهم تلك القصص الدينية التي تجعل من النص القرآني مادة ومجالا للمتعة باختلاق الحوادث، وتسجيل التفاصيل، سواء لنقص يتطلب الاستدراك، أو استطالة وراء معنى مفقود يستوجب المتابعة، كما حدث ذلك في الكتب الكثيرة التي نشأت حول قصص التوراة، وبجميع اللغات، التي كانت في أكثر أحوالها، مع الصور والتماثيل، جنوحا إلى معان مضادة للتوراة، واختراعا وتجارة مع الربا بأسماء رجال ونساء وحكايات لتسلية الملوك والملكات في أوروبا، يتسابق إليها القصاصون والشعراء والمسرحيون، مثل رواية "إستر" لراسين، "وموسى في مصر" أوبرا لروسيني و"يوسف" أوبرا لمهول، و"شمشون ودليلة" أوبرا لسان سانس.. إلخ.

الرسول والقصص:

لقد كان معنى قيادة المنهج القصصي القرآني لآداب وقصص العرب بعد الإسلام واضحا تماما في حياة العرب الأوائل بعد إسلامهم، ولكن المراحل التي دخلت بها الثقافة العربية الإسلامية في ثلاث محاقات متعاقبة من الفرس إلى الترك، ومن الترك إلى الفرنسيين والإنجليز – قد ألقت هذه

الأقنعة القاتمة على وجوه الحقائق المشرقة التي اعتصمت بها الثقافة العربية القرآنية بين المسلمين إلى مدى طويل.

فمنذ نزول القرآن الكريم كانت مهمة القصص جلية، ومحدودة، ومرتبطة بأوثق رباط بالدعوة إلى الله، والالتزام بشريعته، وقد وضع النبي محمد صلى الله عليه وسلم حدود هذه المهمة الدينية الدنيوية للقصص بأنواعه قبل الإسلام وبعد الإسلام، في قوله الجامع "لا يقص إلا أمير أو مأمور أو مختال".

والمعنى أنه لا يحق لأحد أن يقص على الناس قصص السابقين وأخبارهم ليعظهم به، ولا يفتنهم فيه، إلا أمير مسئول، أو مأمور بهذا الإعلام والإخبار بالقصص الحق من الأمير، فإن مسئوليتهما عن صدق الرواية، وأمانة القصص الحق، الذي هو دين وعلم وسنن تحددت أحكامها في مصائر الإنسان والأمم – تمنعهما من الميل مع الهوى بالمبالغة، أو بالتغيير والتبديل، أو بالوضع والاختلاق، مما ينكسر به مسار هذه السنن، وينطمس به هذا العلم، ترويجا بالباطل لمذهب، أو دعاية لزعيم.

وعلى هذا فإن هذا "القصص" إذا ما وقع – كما وقع فيما بعد – في أيدي من يتكسبون به من العامة في المساجد والأسواق، أو بين أيدي من يخدمون أهداف الشعوبية والإسرائلية من العلماء والمتعالمين، فإنه بهذا تبدأ بداية الأساطير بديلا للخبر الصادق، وتنشط مرحلة التحول بالحقائق إلى الخرافات، والانتقال من عصر اليقظة والذكر بالدين إلى عصور الشطح والغفلة والبدعة بادعاء الدين.

إنه بهذا يبدأ خطر التزيد والاختيال على ألسنة القصاصين المرتزقة الذين يبدأون الانحراف تحت فتنة الأجر والإقبال، حيث يصبح "القصاص" هو صنيعة جمهوره، وليس الداعي إلى الله وأجره عليه، ومن هنا فهو

يستعرض بصوته، ويميس بقامته، ويميل بعنقه، مقبلا مدبرا، ومتطاولا متقاصرا. ومن هنا مع التحريف والمبالغة والوضع تنطمس الحقائق واحدة بعد الأخرى، وتبدأ مرحلة الغرق في الأساطير، والخرافات، والتأويلات، والإسرائيليات والزرادشتيات التي عمت بها الفتنة، واستشرى بها التعصب الشعوبي، والتحزب المذهبي، والتشيع الانشقاقي، ثمنا لمتعة جماهير القصاص، وثمرة لخيلاء رجل قص واحترف، فبالغ وأسرف.. وكان في نفس الوقت صنيعة انقلاب على الدين الحق، وعلى الحكمة والبصيرة والحقيقة التي جاء بها الإسلام، ونزل بها القرآن.

ويقول الرسول في نفس المعنى "القاص ينتظر المقت لما يعرضه في قصصه من الزيادة والنقصان" كما أورده ابن الأثير في النهاية.

ثم يقول الرسول أيضا وهو يقدم البرهان على مخاطر استباحة الصدق القصصي، والتجاوز بالرواية من الحق إلى الباطل، ومن الخبر إلى الأسطورة كما وقع ذلك لليهود على مشهد من العالم قبل الإسلام:

"إن بني إسرائيل لما قصوا هلكوا" وفي رواية أخرى "لما هلكوا قصوا" أورده ابن الأثير كذلك.. والمعنى واضح في أن الخروج بالزيادة والتحريف أو الوضع والخيال عن حدود الصدق العلمي والتاريخي والبياني للقصص الديني أو التاريخي، أو في أحاديث كل يوم – ليس إلا طريقا إلى الهلاك في دوامة "الأكاذيب"، والضياع في متاهة "الخيالات" ولا يكون ذلك إلا بفقدان الرؤية للحق والالتزام به، بسبب نقص الإيمان، أو اهتزازه، أو فقدانه، بينما هو مصدر الرؤية للطريق، والوضوح للهدف، والالتزام بالسير القاصد، والخطو المتسق.

ولئن كان هذا المعنى في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ينصب على القصص الحق في القرآن الكريم، وعلى قصص وأخبار العرب

الأوائل، وعلى قصص المسلمين وأخبارهم، وسيرته وسيرة أصحابه بينهم، مما لم يذكره القرآن في ارتفاعه عن التفاصيل، وتقنينه للأحداث – فكيف يكون الحكم حين يخرج من مجرد "الخيلاء" التي أشار إليها في حديثه عن "القصاص المختال" أي المتزيد – كيف يكون الحكم إذا تحولت ظاهرة الخيلاء والمبالغة إلى صناعة كاملة "للتخييل" والتلفيق لكل ما لا أصل له من الحكايات، ولكل ما جرى تخميره من الأكاذيب، ليسكر بها الغواة والهواة والمستضعفون من قراء الروايات، وشهود المسرحيات.. فيضحوا أو يبكوا.. ثم يدمنوا على هذه "السكرات في بضاعة من يضحكهم ويبكيهم بالخيال والوهم، وبالصناعة والتمويه حتى إذا هلك هؤلاء السكارى المخدرون بما قرأوا، وبما شاهدوا، داخل غيابة الاستبطان الوهمي، لم يبك عليهم أحد..!

نعم فهكذا بعد أجيال من سكرات القصص، وأوهام المسرحيات هلك اليونان والرومان.. كما سيهلك عمالقة حضارة اليوم، المرضى ببقايا أوهام المسرح، والمتقنعين على عدوانهم وشهواتهم بالكثير من أقنعة الخداع والتمثيل.. خداع كل منهم لنفسه المنقسمة عليه، وخداع كل فئة لأختها، وخداعهم للأمم التي يتحالفون معها، أو يتحالفون عليها.. وهم في كل أمرهم ساء ما يفعلون، وعن تخييلهم وخيلائهم لا يرجعون.. وإذا رأوا آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم.. تحمل نذر هلاكهم.. لا يستدركون.. ولا يؤمنون!

الفصل الثاني

الوجود الحي
ومفهوم الإنسان في القرآن

مفهوم الإنسان:

جوابًا على السؤال المستمر الطرح داخل مسيرة البشر: من هو الإنسان، توصلا لمعرفة: ما الوجود.. والحياة؟ .. ومن الموجد.. والخالق؟.. قيل قديما: الإنسان حيوان ناطق.. ولم يكن هذا الجواب كافيا لإنارة الطريق فالنطق المميز لحياة الإنسان لا يعني النطق بالصواب دائما. إنه لا يعني أن هناك من لا ينطق أصواتا معجمة خرساء المعاني.. أو أن هناك من لا ينطق كفرا بالحقيقة التي يبحث عنها، أو التي أغمض عينيه وحواسه وهو يبحث عنها.. بينما الكفر، الذي هو غطاء على الحواس، يملأ الكلام المنطوق في الفلسفات والأساطير والحكايات الخيالية "كذبا" أو "ظنا".. والظن لا يغني من الحق شيئا.

وقالوا بعد ذلك في تعريف الإنسان بما هو أفضل إنه "حيوان ذو تاريخ" أي إنه بالكتابة التي يعقل بها تسجيل ما يجرى عليه، وما يجرى منه، يستطيع أن يفيد من تجاربه ويتقدم، بخلاف الحيوان الأعجم الذي لا تاريخ له.. ولا تجربة لتقدمه.

ولكن الكتابة في حد ذاتها هي "نطق صامت" أي أن الإنسان بالكتابة هو الذي ينقل أصواته وصور أفكاره ومعانيه بالحروف والكلمات من جيل إلى جيل.. ويعود بنا هذا إلى عيب التعريف الأول، أي إلى السؤال عن نوع هذا الكلام المكتوب.. ومدى الحق والصدق والصواب فيه.. أي مدى رؤية الواقع كما هو من خلال حركته، ومدى فهمه فهما شاملا من خلال وعي قوانينه.

ثم ظهر أخيرا مع الماركسية هذا التعريف الذي يحدد المفهوم المادي أو الأرضي للإنسان على لسان "انجلز" مرتبطا بالنقطة المركزية في

فلسفتها المادية وهي "تصنيع الطبيعي بأيدي الطبقة العاملة" وذلك حيث يقول "الإنسان كائن حي ذويد".. أي "يد" تعمل بتوجيه الفلسفة المادية على تصنيع العالم الطبيعي من أجل تغيير هذا العالم.. وهذا التعريف ناقص أيضا، ومغلق عما هو أبعد من العالم الأرضي، وما هو في متناول الحواس، بينما الإنسان والأرض متأثران بالوجود السابق، وبالواقع الراهن، وبالمستقبل الوشيك والبعيد، أي بهذا الذي تغلق الماركسية أعينها بسذاجة عنه، وهو القوة المدبرة لهذا الوجود السابق والراهن والوشيك، والتي وإن لم تكن بالضرورة في متناول الحواس الإنسانية، فهي في متناول إدراك العقل الإنساني السليم.

في القرآن الكريم نجد أن الإنسان الذي هو بدليل حركته الحرة كائن حي يتميز أولا بهذا "العقل" الذي "يعقل" أي الذي "يمسك" بأيدي حواسه من الواقع المحيط به كل ما يقوم به من "المدركات" هذا البرهان على الله الخالق، وكل ما يستقيم به طريق حياته في ضوء هذا البرهان إيمانا به، وتصديقا بما يأتي منه.

هذا العقل الذي يميز الإنسان عن غيره لا يكون في لغة القرآن عقلا سليما صحيح الأداء لوظيفته التي هي عقل وربط المدركات من العلوم والسنن مما حوله إلى وعي الإنسان – إلا إذا عقل البرهان المبين على الله، وأسلم بهذا إلى الإيمان به، ونقل هذا الإيمان إلى الشعور بالأمن في قلبه، أي نقله من مجال "الفكر المجرد" و"البرهان النظري" إلى مجال "الحس المدرك" والمسموع في جهاز القلب، الذي أودع الله فيه هذه العلاقة الوثيقة بالرقابة والتسجيل لعلم العقل الذهني والإدراكي، وهي علاقة تظهر – كما سبق القرآن إلى تسجيلها – في ارتباط نبض القلب بهذه الدلالة

القطعية على "الصدق" في حالة انتظامه، وعلى "الكذب" في حالة اضطرابه وتسارعه.. مع أن وظيفته العضوية والحيوية هي ضخ الدم لتسير الحياة.

بهذا الجهاز الكاشف عن الصدق والكذب كما وضعه الله تحت صدر الإنسان، وكما كشف عنه القرآن في أكثر من آية وحكمة – يظهر هذا الاتحاد الناطق باستمرار تحت الضلوع بين "نبض الحياة" في القلب، وبين "برهان الإيمان" بالعقل. إنه الاتحاد الدال "حسيا" على حكمة الحياة، فالإنسان مخلوق ليؤمن، وبعبارة أدق ليكون "اختياره" بالعقل واليقين وبالعمل هو الإيمان. إنه الاتحاد الذي وضع عمل العقل من حيث صدقه بالإيمان، أو كذبه بالكفر، في حيز الوقائع التي يدركها الحس، والقياس المادي، وهكذا نقل القرآن الكريم بهذه الدلالة المرشدة مكان العقل في الرأس نقلا مجازيا إلى "القلب" الذي هو تحت الصدر قياس عمل العقل الدائم في إدراك برهان "الإيمان" وفي تسجيل وتحقيق حالة "الأمن" الكامل بدليل انتظام نبضات قلبه مهما كانت المؤثرات الضاغطة عليه – قهرا أو غواية – من حيث أن إدراك الإنسان درجة الإيمان بالله عقلا ووعيا ويقينا هو "الصدق" المطلق في حياته.. الصدق الذي يكون بالأمن هو مصدر كل صدق في شعوره وقوله وعمله.

إذن فمفهوم الإنسان في القرآن هو أنه "كائن حي ذو قلب" أي ذو عقل يدرك يتفكره في واقع الوجود وحركته برهان الله الحي، الخالق، المدبر.. وهو يدرك هذا حقا وصدقا بدلالة انتظام نبض قلبه تحت أضلاعه، وبدلالة "سلامه النفسي" في واقع هذا الأمن القلبي وسط أنواء الحياة وعبابها وهو هذا السلام الذي يسميه القرآن بلسانه العربي "السكينة".. سكينة المؤمنين.. كما أشرنا إلى ذلك في الكلام عن اللغة الدينية صفحة150.

يقول الله في أن الإنسان يعقل بقلبه بسبب هذه الدلالة الحسية في القلب على الإيمان والصدق: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾.

ويقول عن الكاذبين بالكفر ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾.

ويقول في أن الإيمان هو مصدر الأمن، لأن الإيمان هو الصدق الكامل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾.

الوجود الحي:

بهذا العقل الممتد بحواسه إلى أقصى واقعه في الوجود المحيط به، والمتحرك في رصده لهذا الواقع مع آياته المتسقة على نفس إيقاعه، والمتفاعل معه إلى أقصى قدرته بحاجات حقيقية غير زائفة.. حاجات الحياة الأساسية من حفظ الذات، والنوع، والأمن، والعلم – انطلق الإنسان العربي في أوسع رقعة من الوجود الحي الذي وصفه القرآن.. الوجود الأكثر تكاملا بأرضه وسمائه، وبدائه وأضوائه، من أي رقعة أخرى يحيا بها إنسان على هذه الأرض.. انطلق ليتفكر ويتعلم، وليتعلم ويؤمن، وليؤمن ويعمل، وليعمل ويترك عمله في مأثور كلامه، وصادق قصصه وأخباره، لمن يسيرون من بعده على نفس الطريق.. طريق الإيمان.

هذا الوجود المرئي، والمحس، والمدرك، كما يصفه القرآن لمن نزل إليهم هو وجود مفتوح أمام الإنسان.. إنه مفتوح أمام حواسه ومدركاته وحاجاته فليس مغلقا عليه، وليس موصدا في وجهه.. إنه وجود مفتوح

بآفاقه، وبدائه، وأضوائه، واعتداله، وجائزة مشقاته في الأمن، والرزق، والجنات، والينابيع.. جائزة ونعمة في رزق البر والبحر.. وفي عطاء الأرض والسماء.

هذا الوجود المفتوح أمام عقل الإنسان العربي وقلبه، وأمام يده وقدمه وجود شديد الجاذبية له.. إنه ليس كما هو في الشمال وجودا طاردا بالصقيع والجدب، وليس كما هو في الاستوائيات وجودا قابضا بالحرارة والوباء.. إنه رغم وحشته بفتح ذراعيه ليأنس بإنسانه، وليأنس إنسانه به، وقد خرج إليه من كل أفق باسطا مودته بكل عناصره، التي كأنها في كل مواكبها تتكلم إليه.. تتكلم إلى الإنسان.. تحييه منذ أن تشرق.. وتحاوره دون أن تمل وتودعه عندما تغيب.. حتى إذا ما أشرقت عليه مرة أخرى حيته من جديد.

هذا الوجود المفتوح أمام الإنسان العربي هو كما يصفه القرآن وجود حي أيضا، بهذا المفهوم للحياة في علم الدين.. هذه الحياة التي ترفع عوائق الغربة بين الإنسان وبين الواقع الحي المحيط به.. الواقع المتحرك، والوجود المفتوح الذي لا يستكبر بكل مواده، وعناصره، ونظمه، عن أن يكشف لهذا الإنسان الذي خرج إليه – أنه مسخَّر له.. مسخر له في هذه المرحلة العابرة في الدنيا إلى أقصى ما يكون بهذه التسخير نماؤه واستهداؤه، وعلمه وسلامه. وأول ما يكون من سخرة هذا الوجود لهذا الإنسان المستأنس إليه أنه لا يفتر عن استخلاصه من متاهات حيرته بهذا الدليل الدائم، والمتجدد، تقدمه له الأشياء مجتمعة ومنفردة، على أن الله خالقه، ومدبر أمره، وهادي سبيله.. الله هو تفسير حياته، وتفسير كل الوجود من حوله، وإن عصمته وسط هذا الوجود الكبير هي أن يؤمن، وأن شكره

لله على هذا الوجود المسخَّر هو أن يعمل في عمران هذا الوجود، بهدى هذا الإيمان.

يصف الله في القرآن هذا الوجود المفتوح والحي أمام الإنسان بأنه مسخر له إلى أقصى ما يبصر منه، وما يدرك فيه فيقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾، ويقول ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ • وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

ويقول عن الأنعام التي سخرها له، ولا يزال يسخرها له ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ ومن آيات الله في هذه الأنعام من الإبل والضأن والمعز ما سخرها به لينسج خيامه، وبيوت رحلته التي يطويها ويبسطها وهو يسعى في رحلة حياته الطويلة في قلب هذا الوجود الحي بالحركة، وبالنعمة، وبالحوار، وبالهداية والعلم، وبالإيناس والمشاركة.. يقول الله في نعمة الأنعام بهذه البيوت: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

هذه هي بيوت الحركة داخل الوجود الحي المفتوح، وهي لذلك نعمة في مقابل تلك البيوت التي ظن الإنسان أنه يخلد فيها بقدر صلابتها، فأصبح في أسرها لا يتحرك، ولا يباشر بحركته حركة الوجود، فيفهم عنه، ويرى برهان الإيمان فيؤمن معه أنها — أي بيوت الرحلة الدائمة — نعمة في مقابل تلك البيوت الحجرية التي هلك بداخلها. وفي عواقب الهلاك داخل هذا القيد الحجري، وفي وهم الخلود به في متاع دائم يخالف الإنسان

به لغة الوجود من حوله لأنه انفصل عنه – يقول الله في هلاك قوم عاد ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ● وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ أي تصنعون المحاجر في الجبال لبناء البيوت والقصور المنيعة أملا في الخلود. وفي هذا المعنى يقول عن أسباب هلاك قوم ثمود ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾ أي مرفهين ومترفين وطامعين في الخلد على هذه الأرض..

في هذا الوجود المفتوح أمام الإنسان، والحي معه، وشديد الجاذبية له، وحيث يتحرك الإنسان فيه – كما تحرك الإنسان العربي القرآني – بعقله الراصد لما يدركه، وبقلبه الساكن بما آمن به، راحلا رحلة الطير بأجنحته بيته الراحل معه، من أفق إلى أفق، ومن مشقة ونعمة إلى مشقة ونعمة أخرى – يصبح نصيب هذا الإنسان من عدد الساعات التي يتفكر فيها في الوجود والحياة، وفي الخلق والمصير، نصيبا وافرا يملأ كل يومه، ويرف على خاطره حتى ملء نومه، فهو في ظعنه ومقامه، وفي صحوه ومنامه، قد أسلم كل أمره إلى الله بين يدي آياته، فلا تغيب عنه شمس، ولا يضل منه نجم، ولا تخطئه نأمة في نسمه، ولا بارقة في سحابة.. أكثر طعامه الشمس، وأكثر شرابه الهواء، وأعظم أنسه الكلمة، وأعظم هدفه الحرية، حتى يبقى الله بهذه الحرية ظاهرا له، وقائدا لمشيئته، وهو يمتطي إليه دنياه، وما سخره له من شيء في هذه الحياة، راحلا مجسدا.

العمل شكر:

في هذا الوجود المفتوح، الذي يعيشه الإنسان القرآني العربي، وحتى اليوم إذا استطاع.. في هذا الوجود الحي، المسخر له بالنعمة، وبالهداية، في كل سمائه وأرضه، وباتساع نهاره وليله، مالكا لنفسه، عاقلا للحظته.. في هذا الوجود الناطق عن الوجود في وعي هذا الإنسان، فهو لا يقول كما

يقول الإنسان الأوروبي المنفصم "أنا أكون" أو "أنا موجود" حتى يعبر من باطنه إلى واقعه بفعل الكينونة.. في هذا الوجود البسيط، الغني، المؤمن يصبح الإنسان هو عمله، ويصبح عمله هو شكره، ويصبح شكره هو حواره الدائم مع الأشياء، ومع نفسه، ومع الناس، وهو يستخلص ما في واقعه المتحرك، ووجوده الحي، من نعمة الله التي لا يحصيها، ليتوجه بكل ما يستخلصه أعمالا وكلمات إلى الله الذي أحياه، وأنطقه بالحق وهداه.

في هذه النعم المتجددة التي يرى الإنسان ويدرك أنها موجهة إليه، في دار متحركة مثل داره هي دنياه، غير أن مصابيحها نجوم، وسراجها شمس، وجدرانها آفاق، وسقفها زينة، وأرضها مسعى.. لا يصبح العمل فقط هو تصنيع الطبيعي.. هو حرث الأرض، وشق الطرق، وبناء السفن، وصناعة الأسلحة.. بل تصبح كل حركة بإرادة الإنسان هي عمل يحسب له أو يحسب عليه، وإذ هو إنسان شكور، إلى رب منعم، في دار امتحان بنعمته، ونعمة بامتحانه، فإن كل حركة بإرادته تكون عملا صالحا يتوجه به إلى الله في مقام الشكر، حتى وإن كان شكره صبرا، وصبره دعاء، ودعاؤه تضرعا.

نعم.. إن كل حركة بإرادة هذا الإنسان الشاكر على النعمة، المتحصن من الفتنة، تكون عملا محسوبا في حسابه، وملمحا ناطقا من ملامحه، وإذ هو إنسان شكور بالإيمان فإن أقرب أعمال الشكر إلى إرادته أن يتحصن على إيمانه، وأن يستهدي فوق هدايته، وأن يستوثق بدوام الذكر لميثاقه مع ربه.. فهذه هي صلاته إلى الله، وذكره له قائما وقاعدا وعلى جنبه، فلا يكاد بها يغفو قلبه، أو يغمض وعيه، أو يفتر لسانه، والصلاة في مقدمة أعمالة أحبها إليه، وألصقها بطبعه، وأسرعها عائدا

على نمائه، وعلى سكينة قلبه، وسلام نفسه، وأيسرها أداء في حركته، كأنها.. بل هي فطرة خلقه يتمكن منها، ويعود إليها، ويتنضر وجها بها. وإنه لحق في فطرة هذا الإنسان القرآني.. أن يكون أحب أعمال شكره إلى الله ذكره، والقيام له، وتقويم النفس إليه، ونهيها، وأن لا تكاد جملة ينطق بها في حديث نفسه، أو حديثه إلى غيره، إلا والله منها باسمه، أو بالكلمة الدالة عليه، هو مدار المعنى، وعصمة الصدق، وهداية الأمر. وما كان من أمر لغة أخرى في ألسنة أهلها مثل ما لهذه اللغة العربية، فوق هذا الوطن المنير، في ألسنة أبنائها وأجيالها إلى اليوم من ذكر "الله" باسمه في حديث كل يوم، وجملة كل لحظة، حتى وإن غفلوا – كما هم في شتاتهم المعاصر – عن ذكره.. وهم في ذكره!!

لقد كان على هذا الإنسان القرآني أن يشكر الله بعمل يبدؤه بعبادته، ثم يتبعه بتوظيف جهده وعقله في تنمية جماعته حبا لها بحبه، وطاعة لما يصلح به أمرهم في طاعته.

ومن ثم تكون الأعمال الإنتاجية، والأعمال الاستخراجية، من أجل نمو جماعته بعمله، ونمو عمله في جماعته، بعد أن يكون قد أعطاها "العفو" كما أمر الله.. أعطاها، ويظل يعطيها، فائض ماله، وفائض جهده، وفائض حاجته، فهذه الأعمال الإنتاجية.. أعماله في المزرع والمصنع.. أعماله لتذليل البر والبحر لما ينفع الناس تأتي في مرتبتها بعد أعمال التقويم لنفسه، وتنمية إيمانه، وبعد أعمال العطاء لجماعته والبر بنوعه.. وهو بهذه الأعمال الإنتاجية والاستخراجية يمضي على نفس النهج الذي أضاءه الإيمان، والذي انتفى به في حياته الآمنة، وفي وجوده الحي نزع الصراع، وقهر السلطة، وزيف الكهانة – فهو يزرع الطيبات من زرق الله، وليس الخبائث والمخدرات من فتنة الشيطان، وهو يصنع ما تسبق إليه حاجة

الناس، مما ينفع ولا يضر، ومما يعطي عائدا صحيا للمجتمع، وما لا يترك من آثاره مرضا بالترف، أو شذوذا في سبيل العيش، أو تمييزا أو تمكينا لفئة على غيرها بغير وجه حق.

إنها هذه الأعمال التي تتجه في معنى التقدم، والعمران، وترويض العناصر الطبيعية وتذليلها بالعلم لمنفعة الناس على أساس "التصنيع الطبيعي" وليس "تصنيع الطبيعي".. وهكذا فإن العلم الذي يقوده الإيمان لا "يفلق" الذرة، ولا يفتح ملف "أطفال الأنابيب" ولا يطير إلى أسلحة الدمار الشامل..!!

نعم.. هكذا كان المسلمون الذين قدموا بالإيمان أصول "المنهج العلمي" القائم على التجربة الحية لأول مرة، ومحوا بذلك عار الفكر الأرسطي التجريدي وأسقطوا منهج الغباء الفلسفي اليوناني – أخضعوا العلم لمعنى "العمران" وربطوا مفهوم "العمران" بأمن الإنسان، وينمو علاقاته الاجتماعية اليومية على أساس السواسية، والاحتفاظ بداره الإلهية العابرة، أي الدنيا، بملامحها الطبيعية حول عمرانه، وداخل عمرانه، من حيث أنها هي كتابه إلى الله، وبرهانه إليه. فلم يلوثوا بيئة الإنسان، ولم يخاصموا بينه وبين واقعه، ولم يزجوا بالعلم في مزالق أهواء المردة من البشر، ولم يدفعوا به وراء وهم ألوهية إنسان وسحق إنسان آخر، إلى أن اختطف المارد الأوروبي هذه الشعلة العلمية من أيدي العرب المسلمين، في تعاقب دورات التاريخ، فمضى بها المجنون سراعا عبر نزوات العدوان.. وبوارق الطمع.. ليحرق الأرض.. ليحرق الحياة ونعمة الله!

نعم.. فمنذ كانت "الأنعام" ترعى العشب، وتحلب الحليب، كان هذا الإنسان القرآني العربي سلاما لنفسه، وسلاما لعشيرته، وسلاما لكل البشر.. كان سلاما بإيمانه وعلمه، وبعمله الذي توجه به إلى الله

للشكر على نعمته.. للشكر على نعمة الأنعام، والغيث، والطرق، وهذه الدار الطبيعية الواسعة المضيئة بالنهار، والمنيرة بالليل.. الدار التي لم يكن يملك فيها إلا "أنعامه".. من صنع الله له.. أنعامه التي يقول الله له عنها في أبلغ بيان:

﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾.

فهذه الآية التي جمعت كل ما كان يملكه الإنسان القرآني العربي، المتبدي في عصوره الأولى لم تترك شيئا من صفة كمال النعمة في هذه "الأنعام" التي حملت اسم النعم الكثيرة، والتي ارتبطت حياتها وخصائصها وطبيعتها بهذه الدار الواسعة.. بهذه البادية المكتملة في أرضها وسمائها بدلالات الدنيوي والأخروي.. ليكون للإنسان المؤمن في هذه الدار الراحلة معه "جمال" حين يريح من رحلته فيقيم، وحين يظعن بعد إقامته ليسرح.. وأنعام الله بين يديه، له فيها "جمال" على كل حال.. أي له فيها "جملة" النعم التي ألقاها الله له في كل صور حياته، مقيما وظاعنا.. مريحا مع المساء، وسارحا مع الشروق.. ونشطا قبل الشروق.

هذا "الجمال" الذي أفاء الله به على ذا الإنسان القرآني، البادي، العربي، في جملة النعم كما دفعها إليه، والأنعام كما خلقها له، لم يزل حتى اليوم أوفر حظا من النعمة الخالصة، والجمال المتسق، في طعام ذلك الإنسان، ومسكنه وطبيعة داره، وسلام نفسه، مما بلغ إليه الإنسان المعاصر في الدول المتقدمة بتسخير العلم، وبالسخرية من الإيمان.

إن ذلك القدر الذي استوعبته تلك الآية وحدها من دلالات "الجمال" الصحي في حياة الإنسان يحل ويرحل وراء أنعام الله له، ووسط نعم في داره

الواسعة أفاءها عليه – لا يزال أوفر كثيرا مما حققه الإنسان الأوروبي الشرقي والغربي والأمريكي، وذلك بشهادته التي لا تخفى عن زائر بلاده، في نوع الغذاء الذي رجع إليه بمشروعات طائلة النفقات لاستدراره والاستزادة منه وهو "اللبن" الذي يقيمون لإبقاره قصورا مكيفة، تعيش فيها آمنة، معززة مخدومة، لتقدم للمتخومين واللاهثين طعام "السماء".. وليكون هذا اللبن في إمكان تسييره والزيادة فيه علامة مميزة أكثر من الطائرة والصاروخ على "التقدم" بمفهوم العمران في لغة الإسلام والقرآن.. وستظل الحقيقة الباقية أن الإنسان العربي الأول، والبدوي العربي المعاصر، لا يزال يشرب من "اللبن" غذاء أساسيا وحيدا في الغالب أوفر مما يستطيعه أو يطيقه ويرتفع إليه، إنسان أوروبا وأمريكا المضيع في علبه المحفوظة والمسممة إلى جوار خموره، وابتذالاته، وعقارات هلوسته.

كذلك فإن هذا الإنسان الأوروبي والأمريكي المعاصر لا يزال، بعد أن أنهكته بيئته المتصادمة مع حاجاته، وضيعته غياباته في صراعاته مع نفسه ومجتمعه وعالمه – ينتبه بإشارة العلم، وبمشورة الأطباء، وأحيانا كثيرة بصراخ الفطرة الممسوخة فيه لكي يقترب من الطبيعة.. لكي يتبسط ويحيا حياة الخيام، أو المعسكرات.. لكي يعرض جسمه الجليدي لمزيد من الضوء أو الشمس، ولكي يفتح على سراديب نفسه المزحومة بفضلات فكره المعصوب، ورغبات نفسه المحطمة، تيارا من هواء نقي، لم تفسده أنفاس مخمورة، ولم تلوثه أدخنة مسممة.

وهكذا نشأت، ولا تزال تتزايد، جماعات الرحلات والمعسكرات، كما أصبحت من ظواهر هذا العصر، هذه الفلول والمزق البشرية من قبائل الهيبيز المختلفة الجنسيات الأوروبية، وهي تخرج إلى العراء والحدائق في مدنها، أو حيث ترحل الفئات القادرة منها، تحمل في أسمالها المتعددة

مسحة عذاب القرون، ومسخ حياة الموبقات والعدوان، وكأنهم – كما نراهم في أزواجهم أو جماعاتهم في رحلات "التشمس" في مصر "دراويش أوروبا" الذين أفرزتهم نهاية الانحلال بالإلحاد والترف، وقد كانوا من قبل يسخرون من "دراويش الشرق" بينما هم الذين كانوا – أي الأوروبيين – عندما سرقوا بلاد العرب، وطمسوا علومهم، وقهروا جماهيرهم، سببا في أن يفرز المجتمع الإسلامي في مراحل الانحلال والتدهور والشتات "دراويشه" الذين لا مقارنة بينهم في عفويتهم، وإمكان إنابتهم، وتطهر أكثرهم، وبين البلداء المحطمين من ضائعي أوروبا وأمريكا، الذين يسبح بهم عباب نهر الحياة بعد أن غرقوا جثثا طافية.. كريهة المصير.

وهكذا يبقى المثال القرآني عن هذا الإنسان البادي الذي جعل الله له الحسنى بالجمال المتسق في جملة النعم التي أفاءها عليه بأنعامه، وبدائه، ورحلته ونقاء مطعمه ومشربه، وسلام نفسه، وحرية إرادته – ثم بعمله الدائب الذي يشكر الله به، فهو يقاسم في ماله، ويقاتل عن جاره، ولا ينام على ضيمه – يبقى هذا المثال القرآني الذي يرفعه هذا الإنسان الحي، ذو القلب، في وجوده المفتوح، والحي، بما فيه من الطيبات، والنعيم، والأنعام، والجمال والرحلة، والشكر – يبقى بالنسبة لهذا الإنسان المعاصر المتقدم "الإنسان الأوروبي الذي قتلته آلة تقدمه، وأوهام قصصه، وأغلال فلسفاته – هدفا بعيد المنال، وبمعنى أكبر من فهمه، وأقسى على عقله من صحوة للحق تنتابه بغير خيال!

الخطاب المباشر:

من أجل هذه النعمة التي استحقها هذا الإنسان المؤمن من أول الدهر إلى آخره.. الإنسان المدعو برسالات الله على أرضه، وفوق وطنه، وبين نعمه، وبلسان أقدر اللغات للبيان عن إيمانه وعمله وشكره – كان خطاب

الله لهذا الإنسان مباشرا إليه.. لم يكن حديثه إليه من خلال كاهن في معبد، أو دعى تحل الآلهة فيه على العرش، أو طقوس أمام هياكل سرية تضاء بالشموع، أو رموز في ترانيم وأوراد سحرية، أو كلمات بلغة الجن في تمائم وتعاويذ.

الخطاب المباشر إلى الإنسان الذي يسمع.. الإنسان الحر.. والقادر بحريته أن يحمل أمانة الاختيار بين الله والهوى.. بين الذكر والغفلة.. بين اليقين والظن.. فهو مسئول أن يسمع.. وأن يتدبر ويفهم.. وأن يعلم ويحكم.. إنه مسئول لأنه عرف النعمة وعاش بها، ورأى الآيات وتحرك بينها، ولأن الله في أعظم نعمه عليه عرَّب لسانه، وأنطقه بالعربية، يكون أهلا بذلك يفهم كلام الله، ويميز ويعي أن ما يسمعه من رسول يصدقه، ولا ريبة له فيه، هو باللسان العربي كلام الله.. الذي ينزل إلى الإنسان نظمه العربي بالصوت البشري، ويبقى بعيد المنال عنه دائما بمستوى وحيه الآلهي.

هذا الإنسان الذي نشأ في النعمة المحفوفة بالمشقات، والذي عاش بهذه النعمة حرا، وارتقى بالحرية والبداء في تعبيره فنطق عربيا.. هذا الإنسان عرف الله، ووضع بلغته وحدها هذا الاسم الصحيح الذي يشير به إليه.. وعندما عرف الله، ونطق باسمه، وشكره على نعمته، تكلم الله إليه.. وكان في مستوى أن يسمع من الله، وأن يفهم منه.. وهكذا من بين هؤلاء الرعاة كان الرسل.. والدين الحق.. والكتاب المنير.. كان ذلك كله ثمرة ارتفع الإنسان في مواجهة الوجود الحي إلى مستوى المسئولية الواعية والمعبرة.

لقد أصبح هذا الإنسان – بوعيه وتعبيره في الوضوح التام.. لقد تعرب في نعمة الله فكره وقلبه، ولسانه وعمله.. والعربية هي الوضوح.. والوضوح

أول صفات الحق، وأعظم قدراته.. وبالوضوح أصبحت مسئوليته عن الدين والحق، والصدق، كاملة أمام الله.

لقد أصبح هذا الإنسان العربي في الوضوح التام فكان لزاما أن يكون خطاب الله به إليه مباشرا.. وأن يكون رد هذا الإنسان بالإيمان والعمل الشاكر في كل مجالاته مباشرا أيضا، وجليا.

إن الله يخاطب هذا الإنسان تام النعمة، والواضح، والمسئول.. يسأله داخل بدائه في الوجود الفتوح، والحي، والمحرك، فيقول له:

* ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

* فإذا لم يكن قد سار ورأى بما فيه الكفاية ليقظة وعيه أمره بمزيد من السير وهو يقول له: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾.

* ويقول له ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾.

* ويقول له ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾.

* ويقول له وهو يقوده إلى منهج التفكير السوي، ومنهج العلم والملاحظة والتجربة: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ● ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

أما وقد عرف الله ببرهان خلقه، ودليل نعمته، وعرف بالسير والنظر، وكر البصر، وتتبع الظواهر، وملاحقة السنن – أنه لا عشوائية في الخلق، ولا فطور، وإنما اتساق وحكمة، وغاية ورحمة، فلقد حق عليه أن يسمع لمن يدعوه، وأن يستجيب لمن رحمه قبل خلقه، ورحمه بين خلقه، وأعد له من جزاء الخلد على كدحه إليه – خير ما أعده لخلقه.

لقد حق عليه، وهو في الوضوح التام، أن يسمع إلى ربه يخاطبه بالوضوح التام من قلب الوجود الحي، ومن فوق الوجود، ومما هو أقرب إلى نفسه في هذا الوجود، خطابا مباشرا يدعوه به، ويوجهه إليه، ويجتبيه له، في قرآن عربي خالد مبين.. حيث يقول:

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [فاطر:6]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق:6]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:21]

*﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد:28]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد:7]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة:57]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:13]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:2]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: 8]

* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾.[النساء:174]

هذا الخطاب المباشر للإنسان الحي بوعيه، والشاهد بقلبه والمفتوح العينين والمرهف الأذنين في قلب الواقع الحي المحرك بآيات الله التي هي في تكاملها، واتساع مداها، في مجال رصده.. هذا الخطاب المباشر إليه نفسا

وجسما، وعقلا وفؤادا، وحاضرا ومستقبلا – هو المنهج السوي في إلزامه بالمسئولية التي هو أهلها، وبالأمانة التي يحملها، وسط الحقائق والآيات التي تشهد عليه ويشهد عليها. وهو أدب التعبير في كماله بالحق، والصدق، والوضوح، مع هذا الإنسان الواضح أمام الله، والواضح مع نفسه، والواضح مع الآخرين.

أفلا يكون من المضحك والغريب بعد ذلك أن يأتي زمان يقال فيه لهذا الإنسان المفتوح القلب والعينين، في واقع لا يزال مفتوحا وحيا أمام عينيه "تعال أغمض عينيك لننظر، وضع أصابعك في أذنيك لتسمع، ثم قم إلى هذا الركن فأعط قيادك لمن يكذب عليك، وابتلع هذه القصص الخيالية الكاذبة.. لكي تفهم وتتحرر؟؟..!".

ثم ألا يكون أشد غرابة وخلطا أن يأتي أيضا هذا الزمان الذي توضع فيه الأسوة بالثقافة في أيدي أدباء يقل بينهم الراشدون القوميون، ويكثر فيهم النقلة المقلدون، والكذبة المختالون، فيقال لهذا الإنسان المؤمن، المفتوح الوعي والعين في وجود مفتوح، وبين يدي تراث صريح "قم لتعرف الحقيقة.. أدخل هيكل العزاء والأكاذيب.. أدخل هذا المسرح.. سنطفئ الأنوار.. سنموه على سمعك وبصرك.. أكتم نفسك.. والآن بعد بضع ساعات وأنت تحت المخدر.. ومستسلما لتعاون المؤلف والمخرج والممثلين على خداعك.. ماذا فهمت؟ .. ماذا قال هؤلاء بعضهم للبعض الآخر.. آه.. يرمزون إلى السخرية من الماضي.. يفتحون شهيتك لحرية المتعة.. يتبرمون من الضرائب الثقيلة.. برافو.. برافو.. لقد فهمت حقا.. وتسليت كثيرا بالطبع.. والممثلة الأولى ما رأيك فيها.. آه يا عفريت.."!!

هذا الهوان نفسه، والمسخ، قد يكون قمة بعيدة المنال في فن التعبير الأوروبي غير المباشر على المسرح، إذا قسنا ذلك بما عرضته مسارح

القاهرة وغيرها من العواصم العربية من "زبالات" الكتابة المخمورة والعارية، التي لا تصلح لغير شوارع ومجامع الهوى، أو التي هي بالذات – كما يسميها الدكتور حسين فوزي في مقال له في الأهرام في 22- 2- 1976 بعنوان السينما الفاضحة – الكتابة العاهرة، وهو يدين ما انتهت إليه الروايات السينمائية في مصر داخل إطار الفن الحديث بالإيرونية، أي بالإثارة الجنسية الشهوانية، والشبقية.. والسينما في العالم الغربي، وفي وكرها الصهيوني السياسي التخريبي في "هوليود" على الساحل الغربي لأمريكا، هي الأبنة غير الشرعية بالسفاح الصهيوني مع المسرح، بعد متغيرات فنون التصوير، والتمويه، وأدواته الحديثة، وتعدد وتطور أهداف الصهيونية العالمية في باطن سياسة التوسع والغزو التجاري وغير الأخلاقي والعسكري للإمبراطورية الأمريكية المعاصرة، وريثة روما القديمة وبيزنطة..!

هذا الهوان نفسه، والمسخ، بآلاف الأدلة على الهوان، وآلاف الظواهر على التخلف، والضياع هو ما يراد بهذا الإنسان العربي، المفتوح الوعي واللب في وجوده المفتوح على رسالة القرآن والإيمان، حتى يلتوي عنقه عن منهج فكره، وطرائق تعبيره، وعما بناه عبر العصور من أدبه المباشر، المتميز بين الآداب، بالحكمة وفصل الخطاب.. لكي يخضع لنفس التقاليد الهالكة لآداب اليونان وأوروبا التي عاشها منذ قبل الإسلام، وما بعد الإسلام.. لكي يخضع للكتابة المخدرة.. والكتابة الوثنية.. والكتابة العاهرة.. في فنون الروايات الخيالية والمسرحية.. لكي يخضع للأيرونية – أي الإثارة الجنسية الشبقية، القديمة والحديثة.. هذه الإيرونية Erotism التي مصدرها كوباء أخلاقي في العالم – بغير غرابة وبغير فخر – هو نفس بؤرة الفساد والانحطاط الوثني والفني والأسطوري القديم في بلاد اليونان.

ذلك أن الكلمة في المعاجم الأوروبية، وكما أصبحت في علوم النفس الحديثة عنوانا على مرض نفسي ينتهي إليه تصدع وانهيار "الإنسان الأوروبي" المعاصر – ترجع في الأصل إلى الأساطير اليونانية عن الهمم Eros.. إله الحب بالمفهوم اليوناني طبعا.. مفهوم الشبق والعدوان والشذوذ.. وليس الطهارة والنقاوة والعذرية المتمثلة في علاقات الحب على هذه الأرض العربية، والتي ترقى بالحب فتبدأ به من المنطلق الهادي والمرشد والشامل وهو "حب الله".. والآباء.. والأسرة والعشيرة والوطن.. وأعمال الشكر في سبيل الله.. وهؤلاء الذين يحبهم المؤمن جميعا.

من أجل ذلك كله تصبح دعوة التحرير والبناء للإنسان العربي المعاصر مرتبطة أساسا – كما يوجه إليه القرآن دائما – بتحرير آدابه المباشرة من أذرع الإخطبوط التمويهي في فنون الرواية الأوروبية والمسرح، والسينما، وجميع الفنون الصناعية الخداعية.. ولا يتم هذا التحرير إلا باستحضار الوجود الحي والمفتوح من حولنا استحضارا حسيا وعلميا من جميع جوانب التفكير فيه، وشهود برهان الله به.. وهو الاستحضار الذي يردنا مع الإيمان إلى الصدق، ومع الصدق إلى منهج الصادقين في التعبير المباشر، والأدب العملي، وأدب الدعوة، باللغة العربية، والجملة القرآنية، التي في سماعها مسرة، وفي وعيها مسرة، وفي تكرارها، والتوحد بها، وتصحيح الاتجاه إلى الله بها أطهر وأعظم المسرات.

إن استحضار هذا الوجود الحي والمفتوح فوق أرضنا.. مهد الدين وبرهانه.. هو المقدمة لكي يعيش الإنسان العربي – كما فعل أكثر أسلافه – واقع النعم الكاملة، ومناخ الوضوح التام، حيث يتاح له أن يستعيد مشاهد الحياة في عناصر هذا الوجود المتسق والحي أمام عينيه.. الوجود المتحرك والمتكامل بكل عناصره وآياته في قصص حق، على

مسرح وحيد لحركة الإحياء والأشياء والصدق، حيث يتاح أن يسمع الإنسان ويدخل في حوارات الخطاب المباشر، والتعبير الصادق، مع أجزاء ومفردات وجملة هذا الواقع الحي في تكامله السماوي والأرضي، وتعبيره المفصح عن البشري والإلهي، والدنيوي والأخروي، وحيث يتجدد في إطار العلم والحق، والجمال والصدق، أن يصغى المرء إلى قول السماوات والأرض في حركتها الدائبة عن أمر الله: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.. وأن يشهد ويصغى أيضا إلى الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس "يسجدون" لله، و"يسبحون" بحمده.. ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾.. في هذا الوجود الحي بمشيئة الله فيه، وسنن الله التي تحركه.. وليس بمفهوم "الأرواح" في العناصر كما هو إلى اليوم في خزعبلات اليونان وأسلافهم الهنود.. فالروح في القرآن هو "أمر الله".. هو كن فيكون.. ليس للبشر "أرواح" بل أنفس.. يقول الله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ● فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾.. وليس للأشياء "أرواح" بل سنن وقوانين وطاعة الأشياء في السماوات والأرض لربها هي حياتها، وامتثالها لقوانينه فيها هو كلامها، وحوارها.. وتسبيحها.

هذا الاستحضار للوجود الحي في بداء وطننا وضيائه، من أجل الشهود الكامل لبرهان الله، وتفتق اللسان بالحق والصدق، كان هو الرس الأول للإنسان العربي في مهده، وأول وعيه، حيث تضع الشمس والنجوم والرياح والنسمات "قبلاتها" على وجهه، وبصماتها في حضانته وتكوينه، قبل أمه، ومع أمه، وأكثر من أمه، وبعد أمه وأبيه.. وهكذا عندما كان يستقر العربي لماما في مدينة كان يرسل بوليده ليرضع مع أم بدوية لبان أمه الكبرى.. لبان البادية. يرضع من ثديها ألوان الصور، وأنغام الأصوات، وحروف اللغة، ومضمون الكلمات.. مضمونها بمعنى الإيمان.. وبمفهوم الصدق والحق.. وبالإشارة المباشرة إلى الله.. بعد نفي كل ما

عداه.. والإسلام إليه طوعا لا كرها.. ووعيا لا تقليدا.. وإقبالا لا فرارا.. والتزاما وعملا.. لا قولا ونفاقا.

هكذا بعث عبد المطلب بحفيده اليتيم "محمد" إلى بادية بني بكر بن سعد، ليرى ما رآه أسلافه من ملكوت السموات والأرض منذ طفولتهم.. وما رآه في شبابه أبوهم إبراهيم.. ليرى مثل ما سيراه لداته وأترابه من أطفال القرشيين حتى مع يتمه وفقره أرسلوه إلى دار حضانة الأحرار.. وحضانة الأبرار.. أرسلوه إلى جامعة كل الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصديقين.. أرسلوه إلى مجمع العلم، ومشهد الحق، ومنبع البيان، ليقرأ كتاب الملكوت المرئي، ويملأ من صوره وأصواته وتخلقات أفكاره، ونظم حركته – لفائف ذاكرته، وخزائن رشده، وسرائر أمانته وصدقه، وبيانه وعلمه.

نعم.. وهكذا ظل العرب المسلمون ممن خرجوا بعد الإسلام إلى الأمصار العربية يفعلون ذلك عندما استقروا في مدن أكثر ترفا، وأشد أسرا، وأثقل إخلادا.. فكان الأمويون يرسلون بولائدهم من قصورهم في دمشق ليحضنهم البداء، ويثقفهم ويعربهم الملكوت المنير.. حتى أكلهم الترف، وأهلكتهم الأساطير في القصور والمدن فلم ينفعهم ذلك شيئا، ونزلوا عن السلطان مكرهين لأعدائهم، وأعداء العرب والدين.

لم ينفعهم الدرس الصحيح الذي حاولوه، لأنهم استنبتوا به صدقا في كذب، والصدق لا يكون مرحلة تنقطع، بل بداية تنمو.. أو توبة تتمكن.. الصدق هو الغاية في الإسلام ومنهج القرآن.. والصدق هو الوسيلة والطريق والأسلوب في العمل بالإسلام ومنهج القرآن.

الصدق هو الرسالة.. والصدق هو الرسول.. والصدق هو الإيمان بالرسالة والإيمان بالرسول.

يقول الله عن "الصدق" الذي هو حضانة المؤمن من أي كذب، ومصدره:

* ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء:80]

* ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:33]

* ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ [الزمر:32]

ويقول الله عن الصادقين الذين يتبعون الصدق وهو الإسلام، والحق، والقرآن، ويؤمنون بالرسول الذي جاء بالصدق، ويطيعونه:

* ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:15]

* ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة:119]

* ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ [الأحزاب:35]

القرآن المهجور:

هذا الاستحضار الحضاري الإسلامي للوجود الحي، المتحرك، الذي يشرق بالحق والصدق، ظل بعد نزول القرآن مرتبطا بهذا الكتاب الخالد، الذي يتمثل فيه منذ نزوله هذا "البرهان" المسموع، والجامع، والمبين، والمذكر بحقائق "البرهان" المدرك والمحس في الملكوت المرئي والمشهود.. ملكوت السماوات والأرض. والقرآن بهذا البيان الجامع، والذكر الموصول، يحفظ بقاء الأمة العربية على دينها وحريتها وأصالتها، كما

يحفظ يخلوده هذا "القرآن" نفسه بخزائن معانيه التي لا تنفد، وقوام نظمه الإلـه الـذي لا ينحـل، كمـا يحفـظ اللغـة، والـدين أي الشـريعة، والتاريخ.

القرآن وهو يرفع الصوت بالدعوة إلى الله، ويجعل من هذا الصوت – كيفما كان المستمعون إليه – عمودا محوريا من النور تجتمع حوله وتتجاذب مقومات وخصائص وأنشطة وآمال المجتمع الإسلامي – هو الذي يستحضر للمؤمنين به جو هذا الواقع الحي، وهذا الوجود الشاهد باتساقه وحياته وعلمه على الله، وهو من أعظم ما يرأب به صدوع الأمة العربية، ويدعم به دعائمها، ويحفظ عليه نعمة استمرارها وبقائها يستبقى بصورته، وترتيله، وآيته، وقرآنه، هذه اللغة العربية التي تستنشق فيها ريح الأسلاف، ونشرئب بها إلى أعمال الأبرار، ونستطلع بها من آفاق النفس المؤمنة آفاق هذا الواقع الحي في وطننا العربي العظيم، والمنير.

إن اللغة العربية كما نشأت قبل نزول القرآن، وكما خلد بقاؤها بالقرآن، وكما وصلت إلينا وهي تعيش في ظل القرآن – هي.. كلمة كلمة وجملة جملة.. نبع دافق ظليل، يجمع ويعكس صور الوطن العربي وأصواته، وفكر الإنسان المؤمن وغاياته، منظوما ذلك في نسيجها الصوتي الحي بإيقاع الطبيعة ذاتها في صوت الإنسان.. الطبيعة الحية التي لا تزال تعيش في لغة الإنسان العربي، وبعد أن استقرت له بالقرآن، لتشهد على جهاده، وجهاد أسلافه، في مواجهة واقعها، واستبانة بيانها، وتتبع برهانها، تتبع الواعي، وملاحقة المؤمن، وبأمانة الملتزم.

ولكن.. منذ أصبح القرآن مهجورا في أهله وإن استمعوا إليه، ومنذ صار الإنسان العربي أسيرا لأفكار عدوه وإن لم يستيئس من تحرره منه – فإن اللغة العربية بين حقبة وأخرى من حقب التبعية والتخلف والشتات،

أخذت تتلقى بيديها الطعنات والهجمات عن وجهها المشرق.. طعنات في نحوها وإعرابها.. وفي كلماتها وتراكيبها.. وفي نظامها الصوتي وإيقاعها.

بل إن الخطط في مهاجمة "اللغة القرآنية" و"اللغة الشاعرة" و"اللغة الجميلة" أخذت تتزايد وتتنوع في هجماتها لتحاصرها في زاوية مهملة وذلك بتعليم اللغات الأجنبية المغايرة لها في الجذور والصوت والمنهج منذ الطفولة، ليؤثر ذلك على نشأة الطفل العربي مغتربا عن لغته القوية قبل أن يتمكن، وبخاصة بعد أن سحب "المجددون" فقيه القرية من عنقه وألقوا به بعيدا، ليكون القرآن في بناء الناشئة لسانا وشخصية، ودينا وأصالة – مهجورا حقا، بينما تدق "الأجراس" أمام أبواب الحضانات الأجنبية، والمدارس الأجنبية، التي تقدم لمن يريدون أن يجعلوا منهم "طبقة" المستقبل – لغة الخواجا.. ورطانة العدو.. وتاريخ بلادنا وآمالها بالمقلوب!!

وفي الظل القاتم حول قرآن "مهجور" لا يذكره أهله إلا من وراء حجاب أو "عزاء" عند الموت أخذ عظم "العامية" ينشز.. وأخذت أمراضها تستفحل وأخذت ملامح هزالها في النطق، وسعالها في الأفواه، وكلماتها التي أكلها السوس، وغلبها الاغتراب – تملأ أحاديث كل يوم.. ليس في الأسواق، ووسائل المواصلات والبيوت فحسب.. ولكن – حتى في مجامع العلم.. وبين عدد غير قليل من المحاضرين والأساتذة الكبار الذين يتكلمون "العامية" برطانة "إيتالية".. أو "سكسونية"!!

هذه اللهجات العامية في أكثر الشعوب العربية، والتي ينفخ الدعاة بالفكر الأوروبي في حطبها لتشتعل حتى تصبح رمادا – هي كما يسميها القرآن الكريم – وكما نسمي العبرية والآرامية والبابلية والحبشية – ألسنة أعجمية، أي أنها مع جذورها العربية أصبحت بأمراض التخلف، والشتات، والتسيب الأخلاقي، والتأويل الخرافي للدين العلمي وقد دخلها

الإبهام، وأعوزتها الحيوية والأبانة، وأصبحت عاجزة عن أي تعبير سليم، ومؤثر، في توحيد شعوبها عقائديها من شتاتها، ودفعها بعيدا على طريق التقدم.

من أجل استكمال الحرية إذن، واستحياء الإيمان، واستحضار الواقع الحي في فهم الحياة، وإحياء الحياة، والصدق في الحياة، ينبغي أن نسترجع اللغة العربية بمستوى وعي القرآن، وأن نعود إلى القرآن لنضع على رأس مهامنا عودتنا إلى اللغة العربية، وعودة اللغة العربية إلينا.. هذه اللغة الأبية، المقاتلة بيديها، بقوى الخلد، والاقتدار، والحياة الحرة الشريفة، والمنتصرة، التي تمنح شعورها للناطق بها، وهي تضمخ بعطرها فمه، وتجدد بأبائها عزمه، وتوقظ بدينها ضميره.. هذه اللغة التي أقمنا بها وبالقرآن على أرض العرب، ومع انتشار الإسلام بها إلى أوروبا – حضارة إنسانية، علمية، متسامحة صادقة وباهرة في آدابها المباشرة، نقية من التعصب والعدوان.. هذه اللغة تعود إلينا إذا لم نعد إلى هجر القرآن.. أي إذا عدنا للقرآن، الذي هو بيننا لا يزال النبع في حياتنا لحياة الصدق وحقائق الإيمان.

الجبر والاختيار:

يبقى في المفهوم القرآني للإنسان، وفي هذا المجال البياني عن مناخ الصدق التعبيري والخطاب المباشر، في آداب اللغة العربية، ومنهج التعبير الإسلامي أن نرد على شبهة شائعة عن بعض المستشرقين في صدد مناقشتهم لموقف العرب من "الدراما المسرح" وتفسيرهم لقصورهم عن ذلك بفقدانهم حرية الاختيار أمام وطأة "المكتوب"!

وكنا قد أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى رأي المستشرق الفرنسي هنري كوربان، الذي اشتغل مديرا للمعهد الفرنسي للدراسات الإيرانية في طهران، والذي يفسر به انصراف "الفكر الإسلامي" عن الدراما بهذه الشبهة التي تطرقت إلى فهمه بسبب "دراساته" الإيرانية، وحيث لم يكن في وسعه أن يميز بين خصائص "الفكر الإسلامي" في مرحلة النفوذ الشرقي الفارسي بكل ارتداداته القديمة على الدولة العربية الإسلامية، وبين الفكر الإسلامي مستمدا من القرآن بمنهج السلف من صحابة الرسول العرب، الذين فهموا القرآن العربي بمنهج عربي، لا تزيُّد فيه، ولا شبهة، ولا تأويل.

لقد أسقط كوريان مفهوم "الجبر" وهو أحد مفهومين خاطئين للعقلية الفارسية في فهمها وتأويلها لحقيقة "الاختيار" الإنساني كما أبان عنه القرآن – أسقط هذا المفهوم بالجبر في أقوال "الجبرية" الأعاجم على "الفكر الإسلامي" شططا منه، وعجزا عن التمييز بين الشرقي والعربي، بل ربما إذا استطاع التمييز جنح إلى تفضيل "الشرقي" والتبرير له في وجه المفهوم "العربي" الذي يصادمه بالمنهج، ولا يألفه بالتكوين.

يرى كوريان وهو ينسب هذا الفهم الشرقي عامدا إلى الفكر الإسلامي أن الفكر التاريخي الإسلامي يتحرك حركتين متعادلتين هما "المبدأ والمعاد" لذلك لا يمكن أن نرى العالم يتطور بهذا الفكر: "لأن العالم لا يسير عموديا بل أفقيا" ثم يرتب كوريان على هذا أن كل ما يحدث للمسلم فهو مكتوب بالنسبة للتحرك العمودي، وكل ما يحدث في المسير الأفقي فهو في حياة الناس المألوفة حادث ثانوي.. ثم يحكم أخيرا حكمه الإسقاطي الشرقي فيقول أن "هذا الزمن البعيد غير المحدد والدوري يخلق "الأسطورة".. ولا يمكن أن يخلق الدراما"!

لا شك أن كوريان وقد عاش في دراسة طويلة للفكر الإسلامي بالمنظار اليوناني والإيراني معا قد سمع عن جماعة "الجبرية" التي ظهر بها في مراحل الردة والزندقة عدد من مرجفة اليهود من أمثال أبان بن سمعان، وطالوت ابن أعصم وغيرهم يقولون مقالة الزرادشتية الغابرة باسم الإسلام، ويزعمون أنه لا اختيار للإنسان في فعله بشيء، فالفعل فعل الله، والإنسان مجبور في أفعاله من خير وشر.. وفي مقابل هؤلاء ظهر إخوانهم يعزفون معهم على الوتر المقابل، ويحملون اسم "القدرية" أي الذين يقولون على عكس "الجبرية" بأن للإنسان إرادته المستقلة عن إرادة الله، وقد غالى هؤلاء أو أولئك في ارتداداتهم إلى المعتقدات الفارسية القديمة لخلق الشبهات، حتى سماهم مسلمو ذلك الزمان وهم يتبرؤون منهم "مجوس هذه الأمة"!

الفهم الصحيح بالإيمان، والصحيح بالعلم، ونص القرآن، في هذه القضية التي أثارتها فتنة المفاهيم الأعجمية، والإسرائيلية، واليونانية، هو أن "الإنسان مختار في حياته في حدود ما اختاره الله له" أي أن الإنسان وهو يبدو أمام نفسه مختارا بمشيئته لما يختاره فإنه في الحقيقة – التي لا يعلمها إلا بعد حرية اختياره – لا يختار إلا ما اختاره الله له".

مصدر الفتنة بين المفتونين بمقالاتهم وشبهاتهم حول مشيئة الله ومشيئة الإنسان أنهم تحدثوا في قضية "المشيئة" بمستوى تصورهم وهم يجترون تاريخ أسلافهم ذلك "الإله البشري" الذي كثيرا ما حكمهم وتأله عليهم في أثواب ملك.. أما الله الحق.. غير المحسد.. الخالق وليس المخلوق.. الذي ليس كمثله شيء.. فقد كانوا في قاع فتنتهم تحت مستوى تصوره.. أو الإيمان به وتنزيهه.. ولذلك فقد تصوروا اشتراك المخلوق في مشيئة عمله مع الخالق.. مع أنهم لا يتصورون اشتراك الإنسان مع "الآلهة" التي يصنعها – وهي مخلوقة مثله – من مشيئة عملها..!

لقد تصوروا "الله" الذي آمن به المسلمون العرب كما عرفوه من قبل، وكما نزل به القرآن منه، على رسول منهم بلسانهم.. لقد تصوروه رجلا مثل "زرادشت" أو إلها مصنوعا على شكل رجل مثل أهورامزدا و"برهمن" فافترضوا في طلب "العدل" منه مفهوما له كالذي يكون بين رجل وآخر، أو بين مخلوق كبير غير مرئي ومخلوق صغير لا يزال يرى نفسه!

على أن الأصول الثابتة لهذه القضية التي كانت ولا تزال أثرا لتخلفات الفكر الوثني الأعجمي عند ارتداده على أصحابه بأمراضهم القديمة – هذه الأصول هي في القرآن الكريم كما يأتي:

أولا: لا مشيئة للإنسان، ولا لشيء، إلا ما يشاؤه الله، وفي هذا يقول الله في كتابه في قول محكم مبين ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ويقول في تأكيد ذلك في قضية الإيمان والكفر: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

ثانيا: هذه المشيئة الكلية والشاملة لله في كل شيء، والتي لا يعلم غيبها غيره كفلت للإنسان في فكره وقوله وعمله موقفا كامل الوضوح لمشيئته الخاصة، ولاختياره الأمر بين الأمرين، بل لقد كانت الفطرة التي خلق الله الإنسان عليها هي التي يدافع الإنسان عن اختياره الحر الذي يحفظ به "حريته" أو "إرادته" التي تبرر مسئوليته وإنسانيته، فهو كلما استطاع يقاتل عن هذه "الإرادة الحرة" حتى لا يستعبده عنها من يطغى عليه بالقهر أو بالغواية.

كذلك كفلت مشيئة الله للإنسان في عدله ورحمته أن يكون له "الخيار" بين الهدى والأمن مع الله، أو يكون له التحير والضلال والشك والخوف إذا ضل عنه، وأصم أذنيه عن دعوته.

يقول الله فيما قضى به للإنسان من موقف الاختيار ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

ويقول في تأكيد أن الاختيار للإنسان فيما يختاره من الخير والشر ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ويقول في هذا المعنى أيضا ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

ثالثا: إن الذين ابتدعوا من السابقين واللاحقين فتنة "الجبر والاختيار" في غبار الأقاويل والارتدادات الأعجمية واليونانية والإسرائيلية بأنواعها قد فسروا المشيئتين معا: مشيئة الله ومشيئة الإنسان على أساس تصور استبطاني صوفي أو فلسفي لواقع "ساكن" و"مغلق" أمام رؤية الإنسان بإيمانه. لقد ظنوا لذلك أن الجمع بين المشيئتين "تناقض" من حيث أن ملوكهم قد مارسوا عليهم من قبل جبروت إرادة واحدة، سحقت إرادتهم جميعا وجعلتها عدما.. لقد عجزوا بالفعل عن أن تتسع عقولهم – في معاينها المعجمة – لتصور اتساق المشيئتين، من حيث أنه لا ضير ولا تناقض في أن تتحرك مشيئة الإنسان المخلوق في إطار وداخل حركة المشيئة الإلهية.. مشيئة الله الخالق، المدير والمسيطر.

لقد عجزوا في وجودهم المغلق والساكن عن تصور إمكان الاتساق في حركة المشيئتين بينما إحداهما وهي مشيئة المخلوق خاضعة تماما لمشيئة الخالق. كما عجزوا ولا يزالون يعجزون عن تصور اجتماع الوجهين البشري والإلهي في الحقيقة العلمية الواحدة، من حيث ما يقع من كل وجه منهما في حس الإنسان، وفي واقعه القريب، من غير تناقض.

فالأرض تحت أقدام الإنسان، وأمام نظره، وفي حسه وشعوره "ثابتة مبسوطة" وليست "متحركة كروية" – ولكنها في حقيقتها العلمية والإلهية في القرآن: "متحركة كروية" وليست "مستقرة مبسوطة".

يشير القرآن الكريم إلى الصورتين معا، لأنه هكذا تبدو جميع صور الوجود، وما تحمله من حقائق العلم، ذات دلالتين تتكاملان معا في التعبير عن حياته العابرة باتجاه حياته الآخرة.. دلالة قريبة على "الدنيوي" في سعيه تلتقطها حواسه بفطرتها بدون كد، ودلالة بعيدة على "الأخروي" في غايته يدركها عقله وفطرته أيضا بجهد التبصر والتفكر في غيب الأشياء، وما تنبئ عنه.

الأرض مبسوطة.. نعم.. وهذه نعمة من الله حتى تكون بالثبات الظاهر والانبساط الممتد مجالا لحركته، ونشاط حواسه، وقدرته على التركيز فيما بين يديه من سعيه، وهذه النعمة يذكرها الله في قوله ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي جعلكم بوسائط علمية، وموازين دقيقة في السمع والبصر والحركة والتفكير – ترونها هكذا كالبساط الممتد لسعيكم، وذلك حتى تتحركوا فوق هذه القذيفة "الكوكبية" هادئين، قادرين على التفكير والعمل فوق سطح ممدود بامتداد أنظاركم، فكلما استدار انبسط أمام أعينكم من جديد، وهو سطح مزدان بمناظره وأضوائه بين الأرض والسماء، حيث يتحرك كل شيء حركة تتسع لقدرتكم على تأملها ووعيها، وعلى ملاحقتها من غير فزع أو اضطراب.

ولكن هذه الأرض في غيبها القريب، وكما يمكن أن يتحقق الإنسان من ذلك، وكما ينبئ القرآن عنها أيضا في آياته هي "كروية" و"متحركة" وليست مبسوطة ولا مستقرة، فهذه هي الحكمة العلمية في وجهها الآخر الذي يعطي دلالته الثابتة على الإلهي والأخروي، لينظر

الإنسان ويتعلم، وهو يضع الحقيقتين العلميتين معا.. حقيقة المشهود بعينه لصالح التركيز لفكره، والضبط لحركته وعمله.. وحقيقة المشهود من غيبه بالتصور العقلي لما لا يمكن أن يراه بعينه.. هذا الغيب القريب الذي تتبدى له بواديه من خلال المسموع والمرئي ليتجه به إلى الأخروي والإلهي ويؤمن.

وهو إذ يضع هاتين الحقيقتين متجاورتين معا، ومتسقتين في العلم والدين، وغير متناقضتين، إنما يرى الحقيقة كاملة، وجلية، ومتسقة بين شهادتها وغيبها، كما أنها في مثل قضية منظور الأرض أمام عين الإنسان لا تتناقض بين انبساط هذه الأرض على مدى حواسه، وبين كرويتها في الواقع المشهود بهذه الحواس.

يقول الله في كروية الأرض بعد انبساطها ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ أي أدارها وكورها على شكل الدحية أو البيضة. ويقول في تكوير الليل والنهار هو في تعاقبهما دليل على كروية الشمس والأرض والقمر: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ ويقول في حركة الأرض السريعة مع هذا التكوير ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.. فهاتان هما الحقيقتان العلميتان تحملان بتكاملهما هذه الحقيقة الكاملة في دلالتها بالانبساط والكروية معا على ارتباط الدنيوي بدلالته على الأخروي، والبشري بدلالته على الإلهي.. ليصبح الدنوي مرتبطا في وعي الإنسان المؤمن وحركته بالأخروي.. أي ليصبح الإنسان في سعيه متجها إلى الله في دلالة الإيمان به والطاعة له.

من هذا العجز في الفهم الشعوبي والتفاسير الإسرائيلية السابقة للقرآن عن تصور الأرض منبسطة وكروية في وقت واحد – عجزوا عن أن

يدركوا في تأويلاتهم عن الجبر والاختيار أن الإنسان في دائرة المشهود له هو "مختار" بقدر وعيه، وبقدر طاقته، وأنه بسبب هذا "الاختيار" الحر في حدود المشهود للإنسان وقع "الاختلاف" الشديد بين البشر في تفسير الحياة، وتصور الواقع، وفي الحكاية عنه، وفي محاولة التأثير فيه.. لقد اختلفوا في الأساس على جواب هذا السؤال المستمر، والمحلق فوق رؤوس العصور والناس: هل قوانين الحركة والتغير في المادة "ذاتية".. أم هي من إله خالق مدبر.. عليم بما يريد وما يفعل.. وهو الله الحق..؟

رابعا: معنى هذا أن الإنسان المؤمن السوي لا يواجه أية شبهة في السؤال عن مشيئته الحرة، ومشيئة الله المسيطرة.. ذلك أن الإنسان المؤمن يرى بغير لبس أنه يتحرك مختارا إلى الله، الذي له الخيرة والأمر في كل اختياره وأمره.. إنه يتحرك واثقا من عدل الله وحكمته .. ومتيقنا من أن الإنسان مع اختياره لا يعلم على وجه اليقين ماذا اختاره الله له في علمه، فالله قد خلقه ليمتحنه بدنياه، أي ليمتحنه باختياره فيما بين الهدى والضلال، ولذلك فهو لا يخبره بما في غيبه عما هو فيه: أحق هو؟.. وإن كان حقا فهو لا يخبره: أصادق هو فيما آمن به من الحق؟.. كما أن الجانح عن الحق في اختياره لا يعلم أيختار الله له غدا ما هو أفضل.. وإنما ترك الله لعباده ما في فطرتهم، وما في عقولهم وتجاربهم من أصوات وأضواء ودلالات يقينية على الاختيار الحق.. الذي هو اختيار الله يقينا.

الموعد إذن لجلاء الحق، وظهور الغيب في أمر اختيارات الناس، صحيحها وباطلها، هو هذا اليوم الذي يؤمن به المؤمنون ويكفر به الكافرون.. هو يوم "البعث" للحساب والجزاء.. ففي هذا اليوم الذي لا ريب فيه تتم مراحل الخلق.. ينضم الزمان في وحدة وهو يطوي أجنحته الحفاقة ويستقر.. يتحد الماضي والمستقبل في الزمان، ويصبحان معا "حاضرا"

يتجدد من غير صراع، ومن غير حجب، ومن غير خوف.. حاضرا تتبدى فيه رحمة الله ورضوانه في حقيقة باقية يتوحد فيها "الزمان والمكان" مرة أخرى في خلود "الجنة". خلود الإنسان المؤمن السوي، الذي تم خلقه واستخلاصه من فتنة الحياة بالخلق بعد الموت، ومن قبضة التراب والموت بعد الحياة.. كما شاء الله لهذا الإنسان مشيئته، وكما وضع اختياره في اختياره.. نعم كما شاء الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

وفي بيان هذه الحقيقة التي استغشى عنها الشعوبيون والمتفلسفون، ورفاقهم – تقدم اللغة العربية، الدينية بطبيعتها ونظامها ومفرداتها، دليلا كل يوم، قبل نزول القرآن وبعده. إنها تذكرنا إذا أردنا بأن الوجود إذا كان في جملته في السماوات والأرض هو "عالم الأشياء" فإن كلمة "شيء" المشتقة من الفعل "شاء: يشاء" هو ولا شك دلالة هذه المشيئة العليا في مشيئة الله، الذي خلق ﴿كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.. كذلك فإن "الخير" الذي يختاره الإنسان لنفسه من "الأشياء" في تعامله معها يعني في المعنى المطلق في اللغة لهذا "الخير" أنه هو ما اختاره الله للإنسان من حياته وكدحه بين هذه الأشياء.

وعلى هذا فإن امتحان هذا الإنسان في هذه الدنيا يتلخص بدلالة هذه اللغة العربية الدينية أنه يختار من "الأشياء" التي شاءها الله – هذا "الخير" الذي اختاره الله.. أي الذي هو التحرك على الأرض في ضوء الإيمان للعمل في مواردها ونعمها، وبين أحيائها وأشيائها، بشريعة الإيمان.

الفصل الثالث

منارة القرآن على بحر الأساطير والتفاسير

المنارة والظلمات:

لم يكد يتم الشروق القرآن على الجزيرة العربية حتى تهيأ المسلمون من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ليخوضوا حرب تحرير الوطن العربي من نير الروم والفرس، ومن أثقال القهر الطبقي، والقيد العقلي، في ظل نظم وحكومات وجيوش ونزوات القياصرة والأكاسرة.

وامتد الإسلام بشروقه، وبسبب أن المقاومة الفارسية اشتدت أمام ضرورة الجلاء عن العراق واليمن – استوى المسلمون في حرب وقائية على أرض فارس، وأصبح الفرس أنفسهم بعد زمن قليل مسلمين، يتكلمون العربية، ويسارعون إلى التعامل والتعادل مع العرب بتعلم علومهم، بل ومحاولة التفوق والتوسع في هذه العلوم.. هذا بينما تراجع الروم بعيدا يتربصون وراء أسوار القسطنطينية لهجمة جديدة على أرض العرب.

ولما كانت علوم العرب تستند أساسا إلى الدين، وتنطلق في النظر إلى الدنيا من الدين، فقد أصبح القرآن هو "المنارة" الهادية والراسية التي تصدر منها مناهج واتجاهات هذه العلوم، والتي تتحدد بعلومها وأحكامها أحكام المجتمع الحر الحديد في علاقاته، وسلوكه، وأهدافه، كما نظمها الإسلام في إطار مفهوم قرآني للإنسان، والسواسية، والحرية، والشورى، والدولة – لم يسبق إليه مجتمع.

وأخذت الأيام تمضي، والليالي تدور، على طريق المتغيرات الطبيعية في سنن الله، وباتجاه هذه النتائج الغربية التي لم يستطع العربي التوقي منها، أو محاذرتها، داخل هذا النظام الحر الذي أقاموه بالإسلام فوق أرضهم. إنهم لم يستطيعوا التوقي من هذه النتائج التي بدأت نذرها تظهر منذ خططت بقايا النظام السكسروي المنهزم لاغتيال الخليفة عمر بن

الخطاب، ومنذ عمد المتطرفون من الفرس بعد هذا الحادث ضد الآخر، مجتهدين وهم يتعثرن معتقداتهم القديمة تحت أقنعة كثيرة أن "يرثوا" على طريقتهم حيوية الدين الجديد، ولغة العرب الفريدة وثقافتهم بمجرد أن يتعربوا – كما توهموا – على باطن فارسي زرادشتي، يخفيه ظاهر عربي قرآني!

ولم يكن الفرس الذين أسلموا، وتعربوا، بهذا الازدواج الخطر، وغير المريح لهم بين القديم والجديد. هم وحدهم العامل الوحيد في تحريك وتفجير الخلافات والمتناقضات، وصياغة القضايا الوهمية والأسطورية والجدلية داخل مجتمع الأمة العربية الكبيرة بعد توحدها بالإسلام، فلقد كان اليهود الذين فك العرب المسلمون أغلالهم من أسر الرومان، قد شرعوا مع الأمن الذي نالوه على أيدي العرب المسلمين، ومع حرية الحركة والتجارة – يمارسون هوايتهم في سرعة الانتقاض على من أحسن إليهم.. لقد كان اليهود هناك أيضا ليكونوا أعوان الفرس على الضغينة والحقد على العرب، وعلى المحاولات الدائبة لتمزيق وحدة المجتمع الإسلامي العظيم، وبلبلة من فيه بالإشعاعات، والخرافات، والبدع، والمذاهب، وتجارة اللهو، وصناعة المتعة.. حتى سقط الصرح العظيم على كل من فيه، دون أن يقيموا بعده البديل..!.. ومع ذلك فقد بقيت منارة القرآن.. بقى القرآن العظيم.. كما بقيت جميع الاحتمالات ليعود الصرح إلى أهله.. ليعود بأهله.. ليعود صرح وحدة العرب، ومجتمع حياة المؤمنين.

عرب وعجم:

هذه المراحل التي استغرقها الشروق الإسلامي سيرا بشعوبه وهي تتدافع بين البناء والهدم، وبين البيان والعجمة، وبين التوحد والشتات – كانت هي فسحة الزمن التي تحول فيها "الخبر" القرآني الصادق إلى

"أسطورة" بغير جذور على طريق التأويل والتفسير، كما يحول الحكم الإسلامي الشرعي المحكم إلى ترخصات وتبريرات وتجاوزات.

لقد استغرقت هذه المسيرة نحو تفكك وحدة العرب، خطوة خطوة مع التحول بالصدق العلمي القرآني نحو التفسير الإلهائي الأسطوري خمس مراحل، تمثلت فيه أطوار القانون الاجتماعي التاريخي الذي أعلنه القرآن في قصصه عن كثير من الأمم التي بطرت معيشتها بعد استخلافها في الأرض بنعمة الإيمان، وهو القانون الذي جمعته الآية القرآنية في قوله تعالى للمؤمنين على عهد النبي الكريم ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾.

أما هذه المراحل الخمس التي جرى فيها تحول الإشراق الإسلامي في الدولة العربية الأولى والكبرى بالإسلام باتجاه الغروب، مع تفكك المفاهيم القرآنية الصادقة بالنزعات الأسطورية، **فقد سارت على الوجه الآتي:**

أولا – مرحلة "التحرير والبناء" بالأعمال المباشرة التي وضع النبي معالمها للخلفاء من بعده منذ أبو بكر عندما أنفذ إلى الشام جيش أسامة بن زيد لحرب وإجلاء الروم، والمبادرة بتحرير "القدس".. وفي هذه المرحلة أدى عناد الفرس، ورفضهم الانسحاب عن الأرض العربية التي طالما حركوا جيوشهم فوقها، ونهبوا مواردها – إلى سقوط النظام السكسروي، وعندئذ أسلم أكثر الفرس وتعربوا اختيارا وتربضا.

ثانيا – مرحلة "الإخصاب الحضاري" بعد بناء الدولة العربية الواحدة من الشعوب العربية المحررة، والأجزاء المستعربة من الشعوب الأخرى، وهي الدولة الكبرى التي قدم لها العرب المسلمون من أصحاب النبي – بعد

حسنى الجهاد لتحرير شعوبها من نير الاستعمار القديم الطويل – دينهم، ولغتهم المبينة، وثقافتهم، لتسري بها في شرايين حياتهم الجديدة حقائق "مجتمع المؤمنين" القائم على السواسية، وحكم الله بالشورى والعلم، والرخاء والأمن للجميع.. بينما أخذت اللغة العربية القرآنية، والتي حلت محل تلك اللهجات المريضة في أفواه تلك الشعوب المتحررة، تغسل وتجدد في نشوة الحرية والتعريب والتديين أفكار ومعاني وآداب وأهداف هذه الشعوب الكثيرة الموحدة مع العرب حول القرآن وشريعة الله الحاكمة فيه.

ثالثا – مرحلة "التشبع الحضاري والاسترخاء" وفيها تم لنطفه الحضارة العربية الإسلامية أن تستقر وتنمو وتزدهر في نشاط وعمران وإشعاع هذا المجتمع الإسلامي الكبير، الذي بدأ الكلام فيه ينبئ عن تمام "تعرب" الحياة الشرقية السابقة بألوانها الفارسية والرومية. وفي هذه المرحلة تمت أغرب عملية لتبادل الخصائص بين العرب والعجم. فلقد استولى الشرق الأعجمي تحت ملامحه العربية الجديدة على التراث الديني واللغوي والأدبي من العرب بينما لم يأخذ العرب من العجم – والمقصود أولئك العرب في الدولة والإدارة وقيادة الجيش – إلا أسوأ البدل عن دينهم، ولغتهم وآدابهم، ومنهج تفكيرهم، وطابع سلوكهم، وهي ألوان الترف في المسكن، والملبس والمأكل، ولذات الاستقرار بعد الترحل الدائم، وميراث المتاع والتفلسف والتمنطق الهندي واليوناني والفارسي وما يلحق بها من القضايا الجدلية، ومن الأوهام والأساطير.. في الوقت الذي أصبح فيه الأعاجم المستعربون يملكون حرية وأدوات التأويل والحذف والحشو والوضع في الدين واللغة والآداب باسم العلم، وباسم الازدهار، ومع الإسراع بكل المقومات العربية، وبالعرب المسلمين أنفسهم، نحو مغيب الشمس الأول.

رابعا – مرحلة ظهور "التناقض والانفصال" بين عنصري الحضارة العربية الإسلامية في العصر العباسي، حيث انتهى الزواج "العربي الفارسي" في قصور خلفاء بغداد إلى صحوة الرشيد وتصفية البرامكة، وانكشاف الكثير من مخططات الفرس ضد الدولة العربية.

لقد كان العقل الشرقي الأعجمي قد بلغ في هذه المرحلة حد "الاكتفاء" بما حصل عليه من العرب، والشعور بالقدرة على الانفصال والاستقلال بالسلطة، وانتهت بعد ضعف السلطة العربية تلك النشوة العريضة والنادرة التي أدخلها العرب على الحياة الشرقية في كل مجال، وبخاصة بعد أن زالت العصبية العربية في الدولة بتأثير الخطط والمؤامرات التي قامت بها تحت سطح النظام، وأمام عينيه أحيانا، تنظيمات الزنادقة من البابكية والقرامطة والإسماعيلية كذلك فقد كان بيان العرب الساحر في خطب عهد الخلفاء الراشدين قد استرخى وانحل داخل القصور المعطرة، ومجالس الشراب الباذخة والموصولة، حيث استحال بها الخلفاء ملوكا، والعرب عجما، وتحولت العمامه العربية الرجالية الناصعة البياض إلى تاج من قماش مزركش، كسروي، أنثوي، على جانبه ريشة، وفي مقدمته جوهرة!

في هذه المرحلة ذابت الخصائص العربية بين القادة، وحل محلها الدخيل الأعجمي من أمراض وأوزار المغلوبين، ومع العادات الشرقية الأعجمية التي عادت للظهور معربة، ومتدينة في ظاهرها بالإسلام، بدأت لعبة اقتسام وخطف أجزاء الدولة، وإقامة حكومات المغامرين هنا وهناك، بالقوة أو بالولاء الظاهري، أو بالهدايا والمؤامرات.. وأصبح الخليفة "رمزا" لا حول له في بغداد.. رمزا لا يملك إلا توقيعه، وإحناء رأسه لأعدائه، وأعداء العرب والإسلام، وهو يمنحهم حق السلطة الشرعية!

وفي هذه المرحلة أيضا بدأت الأصوات "الشرقية" الأعجمية ترتفع باللغة العربية الناعمة وهي تمارس حريتها في استثمار مؤامراتها التي نجحت أخيرا. فظهر السكارى المجاهرون بالسكر والكفر مثل أبو نواس، وظهر الشعوبية المجاهرون بتمجيد كسرى وتحقير العرب مثل مهيار ويشار، وظهر من أصبح في وسعهم أن يبشروا بأنفسهم "آلهة" بين المسلمين ليطالبوا الناس بعبادتهم تحت عشرات المذاهب، ووراء أسماء العديد من المغامرين الذين تقمصوا أشباح "الأئمة المستورين".. وكل هذا التخريب والهوس تم في إطار استمرار مظاهر الدين، ومع استخدام اللغة الفصحى، التي عملت في خدمة أعدائها من الزنادقة والشعوبية وصانعي الأساطير من حيث أن هؤلاء الأعداء تشبثوا حتى اللحظات الأخيرة من حياة هذا الصرح العظيم باستغلال خصائص هذه اللغة الحية.. لغة القرآن التي لم يكونوا في عودة نفوذهم إلى أرض الوطن العربي يملكون البديل الأعجمي لها.. فالبديل في لسانهم وتراثهم لم يكن يساوي شيئا..!

خامسا: مرحلة "التحلل السريع" في كيان هذه الشعوب التي اتحدت باتفاقها على الإسلام وتمزقت باختلافها فيه، مع سقوط السلطة العربية، وتمزق قياداتها أيضا بالفتنة الأعجمية. ولم يكن الوريث الوحيد للعرب والعجم إلا هؤلاء الأتراك بفصائلهم المختلفة، والذين رغم تنوع أسمائهم فقد احتفظوا وتحت إسلامهم – بأقصى ما فيهم من الخصائص التتارية وهي، التقلب والتآمر والإغارة والنهب الذي بلغ ذروته عندما سرقوا "الخلافة" وعندما استغلوا الدين ليحكموا الشعب العربي أسوأ حكم، ولينهبوا موارده، وليقتلوا شبابه في حروب التوسع المستمر دفاعا عن هذه السلطة الاستبدادية الغربية التي لم تنشأ ولم تقم إلا على الجيوش المرتزقة، والمؤامرات، والنهب العلني وعالم الحريم..!

وكان لابد أن يسقط هؤلاء المماليك الجبابرة، والرقيق الذين نهبوا السلطان وتمادوا فيه.. لكي تنتقل أرض الوطن العربي من أيديهم بعد ارتعاشها وذبولها إلى ظالم أوروبي جديد.. ظالم لا يدعي أنه عربي أو مسلم لأن مهمته الظاهرة والباطنة كانت ولا تزال – وكما تأكد بعد زرع إسرائيل – إنما هي القضاء على العرب.. والقضاء إن استطاع.. على الإسلام!

متاهة الإسرائيليات:

لقد تحقق منذ البداية إمكان التحالف بين اليهود والفرس – الأصدقاء من أيام كورش، لكي يعلموا معا من داخل المجتمع الإسلامي على تطويق الانتصار العربي الكامل والمفاجئ بالإسلام، وعلى تعويق مسارات العرب به، والعمل على تزييف وتوهين وتعطيل نصوصه ومبادئه بالتفسير والتأويل، والوضع وتلفيق الحكايات والأساطير.

وهكذا لم يلبث اليهود أن نشطوا لممارسة خبرتهم في تضليل الشعوب الشرقية المسيحية قبل الإسلام بما أذاعوه بينهم عن عجائبيات وأسطورات تاريخهم الديني، وما اعتادوا نفثه من الدعايات حول علوم السحر، واستخدام الجن، وتحريك القوى الكامنة في الحروف والأرقام، والتمتمات الغريبة في الظلام.

وهكذا في دولة من أخلاط الشعوب، والنظم الفكرية واللغوية، والتراث المتناقضة بين النور والظلمة، والوضوح والعجمة – اختار اليهود مجال عملهم المفضل وهو تحويل "الخبر" الصادق إلى خرافة مثيرة تسمعها فئات حديثة العهد بالإسلام، قد أثارتها انتصارات العرب به، وحبب إليها العلم بها وراء هذا الدين المنتصر في أهله، والمنتصر بكتابه، والمنتصر بآية

أخرى عظيمة الإثارة، وهي انطباق عمل الداعي على الدعوة، وتجسد حقائق الإيمان في المؤمن، واتساع بيان اللغة التي ينطق بها المنتصرون للدلالة على كل هذه الآيات الحية إلى مدى بعيد.

وهكذا وقفت أعداد كبيرة من المثارين بالحياة الحرة الجديدة، الفياضة من عطاء إله حق، في حياة المسلمين العرب، من أصحاب رسول الله، الذي لم يعرف الأعاجم من هو، ولم تسعد أعينهم برؤيته – وقفوا في فضول الأعمى الذي أبصر، والرقيق الذي تحرر، ليسمعوا أقوال وتزيُّدات أولئك المتهودة واليهود من هؤلاء "القصاصين" الذين أعادوا فتح مخازن الإسرائيليات الأسطورية بكل قوالبها وأهدافها، وصيغها، ليعيدوا صياغتها "إسلاميا" أي باستخدام الأسماء الإسلامية والمصطلحات القرآنية، والقصص القرآني.. لمحاولة الفتك باتزان المسلمين، وسلامة اعتقادهم، وصحة معتقداتهم.

لقد فتح اليهود بكل نشوة الطفيلي الكامن الذي أتيحت له غرة من عائله – ذلك القبو السري المشهور منذ "السامري" الخزائن أكاذيبهم على الله، وعلى البشر، وأخذوا يملأون بها أفواه القصاصين الكذبة ليشبعوا حاجة المثارين بالدين الجديد، وحديثي التعلم لهذه اللغة المبينة والشاعرة – بكل ما يعمل فيهم من الخرافات والأساطير والأكذوبات عمل الخمر.. وعمل السحر.

والتراث الضخم الذي تركته عصور التدوين من كتب التاريخ والتفسير والحديث لا تزال تشهد على ما اجترحته الإسرائيليات في تشتيت المسلمين إلى اليوم، وتعويق وحدة العرب على أرضهم، وحول دينهم الواحد، وكتابهم الواحد، في طاعة الهمم الواحد.

لقد كان مجال هذا التشتيت من طريق إزاحة "الأخبار" الصادقة يحل محلها سلطان الأساطير المسكرة، والخرافات المخترعة – واسعا أمام نشاط هؤلاء الهدامين للعقل والعلم والدين إلى حد لا تكاد تبلغ إليه أية مجموعة من القصص في العالم، أو أي فن قصصي في شعب.. والبداية التي اختارها اليهود أساسا قبل الإسلام لتضليل البشر، وخداع أنفسهم أيضا، هي مفترياتهم حول النصوص الدينية الصحيحة لقصص الخلق.. من عجائب الكلام عن الجنة، والشيطان، والحية، وآدم وزوجه.. إلى ما تحت الإسفاف وما وراء الهذيان.

وكذلك شقوا طريق الافتراء بجسارة خرافية إلى قصص الأنبياء، فأثخنوهم تجريحا، وأشبعوهم عدوانا وافتراء وكذبا، وهم لا يتورعون عن الزراية بالمعقول في هذا القصص القائم أصلا على أساس "بشرية الرسل" هذا الأساس الذي اجتهدوا أن يهدموه إلى ما فوق وإلى ما تحت درجة الإنسان، حتى يقتلوا في الناس معنى القدوة والالتزام بهؤلاء "الشهداء" و"الصديقين" و"المرسلين".. كما قتلوه في أنفسهم.

ومن قصص الأنبياء تطرقوا إلى دس المفتريات والغرائب على سيرة النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام، حتى يضعوا هذه السيرة الشريفة – وهذا هدف أساسي عندهم – في طابور القصص التي ابتدعوها لجميع الرسل.. من أرسل إليهم، ومن لم يرسل.. وحتى يخرجوا بسيرة النبي – كما خططوا بكيدهم – من حدود ما كرمه الله بكماله البشري.. إلى عالم من الخرافة بغير حدود.. لتضيع به الأسوة بين المسلمين، فيفقدوا – كما فقدوا في عصور الانحلال بهذه الإسرائيليات التي لا يزال يغص بها التراث – عصمتهم في إتباع القرآن بإتباع النبي، كما صح من عمله، وكما صح من حديثه.. وليس كما وضع الوضاعون من اليهود وأشياعهم.

ومن حصيلة ما جرى به الوضع والافتراء في كل هذه المجالات تكدست مادة للخرافة والأسطورة تلقفها من تصدوا من علماء الأعاجم لتفسير القرآن، الذي أصبح بالضرورة علما تتطلبه حاجة أولئك المسلمين الجدد، الذين عجزوا رغم تكلمهم بالعربية أن "يستمعوا وينصتوا" للقرآن، فيفهموا ويعقلوا، ويتدبروا ويعملوا.

وهكذا استمر الطفيلي اليهودي يتكاثر في ظل الأمن الإسلامي داخل الدولة العربية الإسلامية الشرقية، وفي أقصى الغرب في الأندلس، وهو يعمل على أن يقتات بأكثر ما حاول اجتياحه من "الأخبار الصادقة" لتخرج من أفواه كذبة تحولت إلى "أساطير" مخدرة، ليس فيها لمن يسمع لقصصها واختلافاتها إلى الشتات.. حتى سقطت الدولتان على من فيهما.. وعلى الطفيلي نفسه معتق الأساطير، وصانع الأكاذيب.. الطفيلي الذي لحقته أخيرا لعنات خطيئته، وضربات ذنوبه.. من جنس هذه الذنوب.. فسقط بأعداد كبيرة صريعا في الأندلس.. وفر من استطاع الفرار إلى أوروبا ليتجرع من "الشتات" والهوان فوق ما تمناه للعرب المسلمين، وأشد تعقبا له وحكما على مصيره مما خططه لهم، وهم الذين أحسنوا مرارا إليه دون أن ينتظروا منه الجزاء.. فكان له هذا الجزاء!

عمدة التفسير:

ومضت قرون طويلة تحمل في عباب آثارها فضلات وآثار عمل الطفيلي اليهودي في عائله وهو المجتمع الإسلامي، بينما أصبحت هذه الإفرازات الطفيلية في قصص اليهود الأسطوري وإسرائيلياتهم مادة نافقة في سوق التفسير" وطريقا يلجأ إليه أعداء وحدة العرب، وصحوة المسلمين، لكي يعزلوا المؤمنين بسلطان هذه الخرافات في هذا العالم الوهمي الهلامي الذي هو كما اختلقه اليهود "غير هذا العالم".. أي غير هذا العالم

الذي تكلم عنه القرآن الكريم، وعاش فيه النبي الأمين، وآمن في أعظم عصور تاريخه قوم النبي من العرب الذين صدقوه ونصروه، وجاهدوا معه بأنفسهم وأموالهم وصدقهم.

حتى إذا أخذت عصور الصحوة تشرق تباعا على المسلمين فوق أرض الرسالة كان من ظواهر هذه الصحوات ظهور هؤلاء العلماء من أهل التقوى وأتباع السنة والسلف الصالح، الذين كان أول جهادهم تعقب الإسرائيليات وكشف تدليساتها، وإزالة آثارها، ومع ذلك فإن الأمل في أن تأتي هذه الصحوة الشاملة التي تقتلع كل هذا الغثاء الإسرائيلي، وجميع الأحاديث الموضوعة، وتنتزعها من الكتب بالتنبيه إليها، وتحصرها كما يحاصر الوباء.. وليس مجرد التوقي والحذر منها مع بقائها بطول التراث وعرضه – هو الأمل العظيم الذي يزداد الهتاف به، ويكثر من ينتظرون بشائره بين المسلمين.

لقد كان عسيرا – ولا يزال – على كثير من العلماء الصادقين تنقية كتبهم في التفسير من تسلل الأخبار والأحاديث الموضوعة، ونذكر مثالا من هؤلاء العالم الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي من رجال القرن السابع الهجري، والثالث عشر الميلادي، ونذكر معه أيضا عالما معاصرا جليلا تعلق بالسنة، وبتحقيق الكتب الإسلامية، وكان مما حمل أمانته محاولة إخراج تفسير ابن كثير لأبناء هذا الجيل منزها بجهده من بعض ما تسلل إليه من الإسرائيليات رغم شدة توقيه وحذره.. وهما معا مثال نضربه لمجاهدة مصادر "القصص الخرافي" التي لا يزال علماء المسلمين يترددون في قرار اقتلاعها من أساسها، بسبب يرجع إلى هذا المصدر نفسه.. أي إلى أثر "الإسرائيليات" الفعال في بقاء شتات المسلمين، وفي تفرقهم إلى شبع وفرق وأحزاب.

يقول العالم المحقق المرحوم أحمد محمد شاكر في تحقيق المختصر لتفسير ابن كثير تحت عنوان "عمدة التفسير":

"إن تفسير الحافظ ابن كثير أحسن التفاسير التي رأينا، وأجودها وأدقها بعد تفسير أبي جعفر الطبري.." ثم يقول "وقد حرص الحافظ ابن كثير على أن يفسر القرآن بالقرآن أولا، ما وجد إلى ذلك سبيلا، ثم بالسنة الصحيحة التي هي بيان لكتاب الله".

ثم يقول أحمد شاكر وهو يتحدث عن منهجه في تحقيق هذا التفسير المختصر، مبديا عن حرصه المماثل على تنقية الكتاب مما تسلل إليه – رغم جهد ابن كثير – من الأخبار والقصص والموضوعات الإسرائيلية: "حذفت كل حديث ضعيف أو معلول.. ونفيت عن كتابي هذا كل الأخبار الإسرائيلية وما شابهها، فإن ابن كثير رحمه الله قد ذمها في مواضع كثيرة من تفسيره، وأبان عن ضررها، وأنحى باللائمة على رواياتها ورواتها، ورسم لنفسه خطة في شأنها، ومع ذلك.. فإنه فيما يبدو لي لم يستطع أن يسير على ما رسم، وغلبه ما وجد من الروايات في كثير من المواطن، فأثبت طائفة غير قليلة منها، فحذفتها كلها والحمد لله".

ثغرة الأساطير:

ولكن لماذا تسللت إلى تفسير ابن كثير هذه الإسرائيليات بأعداد "غير قليلة" حتى جاء أحمد شاكر فنفاها عن هذا التفسير مشكورا؟.. لماذا غلبت هذه الإسرائيليات في مواطنها الكثيرة من كتب التراث عالما ورعا متحرزا من الموضوعات الإسرائيلية وغيرها مثل ابن كثير؟

الجواب يرد من غير نص عليه في قول الشيخ الشاكر في الجزء الأول عمدة التفسير وهو يقدم له بقوله عن ابن كثير إنه قال في مقدمة تفسيره

بعد أن ذكر حديث "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار" – "ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد.."

هنا نكتشف واحدة من الثغرات الكبيرة والخافية عن أكثر العيون، والتي كانت ولا تزال تبيح الاعتماد على أساطير اليهود، وإسرائيلياتهم، وفي تفسير ما عندنا من الحق والصحيح، وبخاصة في قصص القرآن الذي امتلأ في كتب العلماء والمفسرين القدامى والمحدثين، بالخرافات اليهودية، بل كانت هذه الخرافات هن غالبا عمدة وأساس هذه الكتب، ومصدر إشاعة الغرائب وليس الحقائق بين المسلمين عامتهم وخاصتهم.

إن الحديث الذي يتناول إباحة "النقل" عن أخبار بني إسرائيل كما يقدمه ابن كثير ويتعرض لشرحه ينقسم إلى شقين: الأول هو الخاص بالتحديث عن بني إسرائيل بغير حرج، والآخر هو التحذير الشديد من الكذب المتعمد على رسول الله.. فإذا كان الشق الثاني الذي يتضمن التحذير من الكذب على رسول الله حديثا صحيحا لا ريب فيه في حكم القرآن، وصحة الرواية، وضوء العقل، فكيف يصح الشق الأول، وهو يتناقض مع الثاني من حيث الإذن بالأخذ عن أخبار بني إسرائيل في مجال الاستيثاق الديني، أو زيادة العلم في الدين بما لم يرد عنه نص في الكتاب أو السنة الصحيحة؟

إن ابن كثير يشعر أيضا بالحرج فيقول في تفسير إباحة الحديث عن بني إسرائيل، وتخفيف معناها من أجل تبرير صحة هذا الشق الذي أضيف بدهاء بالغ إلى حديث صحيح.. يقول ابن كثير وكما نقل ذلك عنه أحمد شاكر في مقدمته، وبعد أن ذكر هذا الحديث بشقيه: "ولكن هذه

الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد للاعتضاد".. أي أنها تذكر في مقام الشهادة على صحة ما عندنا وليس في مقام البرهان على صحته!

ثم يمضي ابن كثير في تبرير صحة الأخذ عن بني إسرائيل بغير حرج، كما جاء في الإضافة الإسرائيلية الموضوعة، والتي أجازها الكثيرون بغير حرج يمضي فيقول "فإن هذه الأخبار على ثلاثة أقسام: أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما نشهد له بالصدق فذاك صحيح. والثاني ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه.. والثالث: ما هو "مسكوت عنه".. لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به، ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم"!

معنى هذا وهو عجيب غاية العجب أن الأمر الصريح والمنسوب إلى رسول الله بنقل الأخبار وروايتها عن بني إسرائيل بغير حرج هو ما يأتي كما يفسره أو يبرره ابن كثير:

* خبر صحيح عندهم يوافق ما عندنا فلا حاجة لنا به..

* وخبر مكذوب عندهم ينكره ما عندنا فلا حاجة لنا به..

* وخبر مجهول منا لأن ما بأيدينا سكت عنه فهذا ما تجوز حكايته!

أي إننا نقف بمعنى الحديث المنسوب إلى الرسول عند حد إباحة التحدث بما تخصص فيه اليهود من غرائب الأخبار التي دسوها حتى في أسفارهم، وعلى رسلهم .. وهي في ظاهرها وباطنها خرافات يلتوي بها معنى "الصحيح" الذي عندنا إذا أخذنا به وصدقناه، ويزداد به نكر "المكذوب" الذي عندهم ولا حاجة لنا في المزيد!

ويفطن ابن كثير بسلامة قصده الديني إلى هذا الحرج الذي أضافه الشق الموضوع على الحديث الصحيح فيقول ما هو في دلالته تجميد المعنى

الحديث المنسوب للرسول: "وغالب ذلك – أي من الأخبار الإسرائيلية المأذون بالاستشهاد بها – مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني"!.، أي أن المأذون به من هذه الأخبار يدخل في أمر آخر لا يرتقي إلى مستوى حقائق الدين.. أي أنه مجرد أخبار وقصص تروى للاستشهاد.. وهذا حرج آخر يضيفه هذا التبرير لصحة الإذن بالتحدث بالإسرائيليات، ذلك أن الأخبار التي لا ترتقي إلى أمر ديني هي قصص تدور في الأخبار الإسرائيلية دائم حول أمر ديني تفسره القصة. فالاستشهاد بهذه القصص والأخبار هو استشهاد في أمر ديني يصوره اليهود بحسب أهوائهم بعيدا عن هذا "الصحيح" الذي في أيدينا، أي أن هذا الاستشهاد هو في نفس الوقت "اعتضاد" للباطل وليس للحق؟.. فكيف نعقل أن الرسول يأذن بهذا.. ونفتح هذه الثغرة.. وصوت القرآن الكريم الذي نزل وحيه عليه، وكان هو النور الذي اهتدى به ودعا إليه، يرتفع بالتحذير من اليهود الذين عاشوا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ كما يقول عنهم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾.. أي أن الإعراض عنهم أمر نزل به الوحي إلى المسلمين.

ويمضي ابن كثير ليؤكد الحرج الذي انتهى إليه الأخذ عن بني إسرائيل، والبلاء الذي صار بخلافات المفسرين بسبب ذلك فيقول "ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرا – أي في أخبارهم التي لا تعود لأمر ديني – ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم وعدتهم، وعصا موسى، ومن أي شجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، أو نوع الشجرة التي كلم الله منها

موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن، مما لا فائدة في تعيينه"!

فهل هي الأخبار الوهمية، والمصوغة في صياغة أسطورية ليتلهى بها السامع والقارئ عن النص المحكم، والحق الملزم – هي التي أذن الرسول للمسلمين في التحدث بها ليزدادوا علما..!؟ .. فإذا كانت من العلم فلماذا لم يتحدث بها القرآن؟.. لماذا أبهمها كما يقول ابن كثير، بينما تحدث عن النملة التي قالت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ .. ولماذا حين ذكر النملة لم يقل أهي سوداء أم شقراء؟ وهل هي نملة من جنود النمل أم من الشغالة؟.. لماذا يتوقف القرآن عن التفاصيل في كل قصصه؟.. وهل هذا علم أعلى.. إلى هدف أسمى.. أم قصور عن بعض العلم وليس هذا حقا؟.. ثم كيف يأذن الرسول في هذا الحديث الموضوع عنه بالتحدث عن بني إسرائيل وهذه الأخبار كما حصرها ابن كثير وغيره في "المسكوت عنه" مما ليس بصدق ولا كذب قد اختلف فيه اليهود كعادتهم خلافا كبيرا.. فكيف إذن نأخذ عنهم ما اختلفوا فيه..؟.. وكيف يأمر الرسول المسلمين بأن يحدثوا بأخبار هؤلاء المحرفين الذين اختلفت أخبارهم خلافا كبيرا دون أن يبين لهم كيف يتحدثون عن المختلفين؟.. بل كيف يجتمع للمسلمين أن يحدثوا عن النبي وهو الصادق الأمين، وبين أن يحدثوا عن أكذب الكذبة في تاريخ البشر، وتاريخ الدين، وهم بنو إسرائيل، ثم هو في نفس الحديث بحذر من يكذب عليه متعمدا!

بل نقول كيف اتفق لابن كثير على حفظه وتورعه أن يصدق هذه الإضافة الإسرائيلية على حديث صحيح وقد سبقه العالم السلفي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الحوزي القرشي من مواليد القرن السادس الهجري فأثبت في كتابه عن "الموضوعات" بعد المقدمة هذا الحديث الصحيح عن

النبي صلى الله عليه وسلم وهو "من كذب علي متعمدا فيلتبوأ مقعده من النار" لقد أثبته ابن الجوزي هكذا بغير الإضافة الإسرائيلية التي لا يقبلها عقل سليم على النبي الكريم وهي "وحدثوا عن نبي إسرائيل ولا حرج".. وقد ذكر ابن الجوزي في كتابه ما ينفي أي إبهام أو لبس حول صحة الحديث هكذا بغير الإضافة الإسرائيلية عندما نسب روايته بنفس النص المحكم "من كذب علي متعمدا فليتبوأ معقده من النار" إلى عشرات من الصحابة يقاربون المائة كلهم رواه بغير هذه الإضافة الإسرائيلية المكشوفة، رغم دهاء الوضاعين بإلصاقها إلى حديث صحيح، وفي مقدمة هؤلاء الرواة الصادقين أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم وغيرهم.

على أن العالم المحقق أحمد محمد شاكر رحمه الله يخطو خطوة أوسع في الدلالة على الشبهات الكثيرة في هذه الإضافة المنسوبة إلى النبي دون أن يعلن عن أنها إضافة إسرائيلية فهو يقول تعقيبا على كلام ابن كثير عن هذه الإضافة نفسها: "ويقول أحمد محمد شاكر: إن إباحة التحدث عن بني إسرائيل فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه – شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولا أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها – شيء آخر! لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصل لما أجمل فيه! وحاشا لله ولكتابه من ذلك".

ما أصدق هذه الكلمات.. إذن فكيف – مع هذا – نعقل أن الرسول يبيح التحدث عن بني إسرائيل.. وبغير حرج.. هل لنتحدث عنهم.. بعيدا بعيدا عن كتاب الله .. عندما نلهو مثلا.. ونخلو إلى شياطين الأنس والجن..

كيف والرسول لا يحدث في حديثه الذي يصدر عنه بين يدي كتاب الله إلا ليكون المسلمون بوصاياه في هذا الحديث أقرب قربا في كل شئونهم إلى كتاب الله!

ويبلغ الشيخ شاكر رحمه الله ذروة الصدق في الفهم حين يقول وهو يستغفر الله: "وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ونكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم يكون أقوى من أن نقرنها بكتاب الله ونضعها في موضع التفسير أو البيان؟.. اللهم غفرا"

ونسأل مرة أخرى: إذن فلماذا يأذن الرسول بالحديث عنهم؟.. كيف نعقل ذلك؟ وكيف لا يهولنا ما نجم عن الزعم بهذا الأذن من اقتحام هذه الأخبار الإسرائيلية الأسطورية المدمرة رحاب كتاب الله لتكون في قصص القرآن موضع التفسير والبيان والشهادة.. حتى استشهدت الحقائق في أكثر هذه التفاسير.. ووهن بها إيمان أكثر المسلمين.

نعم.. ولا تزال هذه الثغرة الكبيرة باقية تحت جدار التراث، وفي قلب مدوناته، لتجري على الألسنة إلى اليوم، وتتسلل إلى الأفهام جيوش الظلمة، وطفيليات الخرافة، ومسكرات الأسطورة.. والعدو الإسرائيلي قد جاء بنفسه إلى هذه الأرض المطهرة.. جاء وراء أكاذيبه، وفي غفلات الضعف الذي انتهت بنا إليه، يحاول إن لم ننجح في صده.. أن ينفخ وينشط سريان النار في هذه الأكاذيب الأخرى.. أكاذيب لها مذاق خمر جديدة.. وفن خداعي جديد.. وهدف عدواني جديد.. أكاذيب بدأت نصك عملتها في بلادنا على أيدي صنائع الاستعمار، وخطط إرساليات التبشير.. أكاذيب الرواية الأوروبية الخيالية والمسرح، وما يجري بباطنها وظاهرها من محاولة التمزيق النهائي في مقومات وملامح وهوية الإنسان العربي، وتحويله إلى

خليط "شرقي عربي أوروبي" نابع في حالة الشنات والاستهواء والذهول إلى سيده الجديد.. هناك وراء البحر الأبيض المتوسط شمالا.. شرقا وغربا!!

الإنسان الشرقي:

في ذلك المناخ الشرقي الذي تم فيه فوق أرض العرب تبادل المواقع خلال خمس مراحل بين العرب والعجم، فاستعجم العرب، وتعرب العجم، نشأ هذا التراث الإسلامي الذي يدور تحت منارة القرآن الخالدة، وحولها، فوق بحر من الأساطير والتفاسير، وأكداس من الموضوعات والمبتدعات. وعلى رغم التناقض بين الفريقين.. بين العرب الذين استعجموا على عروبتهم، والعجم الذين تظاهروا بالتعرب على عجمتهم، فقد عاش الجميع يتقاتلون ويتنابذون، بينما هم يتخالطون في المساجد والأسواق، وفي القصور ومجالس العلم، وفي مجالس اللهو والخمر والغناء أيضا، دون أن ينشب بينهم صراع حاد حاسم يقضي على طرف لصالح الطرف الآخر.. أو ينشأ بينهم تحالف صريح يتعاونون به على هدف محدد.. لقد اعتاد كل من الطرفين أن يذوب كل منهما في الآخر، وأن يمتصه على مهل، ثم ليتحول من بعده إلى شيء.. لا يصلح لشيء!

لقد عاش كل من الطرفين داخل المجتمع الإسلامي بعد انحلاله وتفككه في توافقية "شرقية" يتحرك بها الأضداد في اختلاف كأنه الاتفاق. فكل شيء كما يبدو – هو منقسم على غيره في إطار الاتفاق.. الدين واحد.. ولكن لا ملل من الاختلاف فيه.. والقرآن واحد.. ولكن لا انتهاء عن الفتنة في تأويله.. والمجتمع واحد.. ولكن الناس من عرب وعجم ليسوا فيه سواء في الفهم، ولا في العادات، ولا في الأهداف.. والإنسان في هذا المجتمع واحد ولكنه وقد أخضع الحياة لمفهوم المتاع القريب، وفصل الدين في واقعه عن الدنيا، وأعطى ولاءه للظاهر الخليفة الأسير في القصر،

وولاءه الباطن للإمام المستور في القصر الآخر، أو للقطب المغمور في داخل الأسواق وحول المساجد، وللشهوة السانحة في أي مكان.. إن هذا الإنسان لم يعد – كما كان بالإسلام الحق – واحدا متحدا بذاته.. إنه كيان هلامي دائم التشكل والتخلق، فارغ من أية حقيقة منتصرة لها السيادة في إرادته.. إنه منقسم دائما على نفسه.. قابل لحلول غيره فيه.. من السماء والأرض.. وقابل أيضا لغيابه عن نفسه. لقد هبط عن حقيقة المؤمن.. وتقاصر عن صناعة المتفلسف.. ورضى أن يكون في مجتمع التيه الشرقي، وداخل وليمة الحضارة السكرى بالإسرائيليات، والفصامية بالشعوبيات، والتي ذاب فيها العرب والعجم مفتوحي الأعين كالموتى – مجرد "صورة" في حلم بديع مروع.. صورة مليئة بالرموز، والشفرة التي لا تجد حلا، وهي تتشكل لتلد المعاني المتناقضة، ومشاهد القدرة الوهمية على تخطي العوائق، وصنع الخوارق.. بينما وهي تعلو وتهوى في مهاب الرياح والنسمات – هذه الصورة – تتحول في نهاية كل بداية – إلى وهم متطاير .. إلى حصاد الريح.. إلى لا شيء يتكلم!

ومع كل ذلك.. مع غيابة الترف، وخدر التخيل والاختلاق، ونشاط الوضاعين في "النفس" و"الفيض" بالغرائب والأوهام والأكذوبات التي يتمزق بها مجتمع المسلمين تحت مستوى اليقين، وفي أعماق الظن، فقد ظل الشعور بأن المسلمين على هذه الأرض "عربا وعجما" يدنون بدين واحد سببا لأن تبقى تناقضاتهم بعيدة عن دفعهم إلى الصدام الحاسم.. صدام الصراع الذي وقع مرات ولا يزال يقع بين العرب وأوروبا قبل المسيحية، وبعد المسيحية، ومع الصهيونية إلى اليوم.

ومع ذلك أيضا، فإن هذا المجتمع العربي الإسلامي الذي بدأ مثالا في التطبيق على مجتمع النبي كما يناه مع أصحابه في المدينة – قد أخذ بهذه

المتناقضات يفقد دلالاته المتميزة اجتماعيا وثقافيا وحضاريا على أنه – كما بدأ – هو المجتمع الإسلامي والإنساني المنشود.. المجتمع الفاضل الذي تصبو وتحلم وتفكر وتعمل على بنائه – هذه الإنسانية على مر العصور.. والذي إذا أوجدته آمنت به.. أو أحلته محل الأسوة والتقدير.

لقد تحول المجتمع الإسلامي بعوامل سلبية كثيرة إلى مجتمع "شرقي".. وبينما احتفظ بعدد كبير من العرب والفرس تحت حالة الذوبان الشعوبي باتجاه الانهيار، بأنساله خصائصهم القومية ليبدأوا – بعد انفضاض العرس – حياتهم القومية من جديد – فإن الإنسان "الشرقي" قد ظهر فعلا فوق أرض الحضارة العربية الإسلامية.. الإنسان الذي اجتمع فيه العربي والأعجمي رغم أنفه.. اجتمع فيه الأحسن والأسوأ من موروثات وخصائص أسلافه المشتركة.. وهو الآن لا يزال يسير فوق هذه الأرض نفسها التي نشطت فوقها الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة التي تحاول أن تلغي قوة "العمل" في القرآن، لتحل محلها قوة التبرك بآياته المعجزة، وأسرار حصول المرضى والمتعطلين والبلهاء بغير أسباب على الصحة والرزق ومواقع القيادة في المجتمع والاحترام عند الحكام!

إن هذا الإنسان "الشرقي" الذي يعيش الآن فوق الأرض العربية منتميا إلى الشعب العربي، وهو يتكلم اللغة العربية لا يزال يحمل على ظهره هذا التراث المنسوب إلى العرب، والزاخر بآثار العجم، وحلفاء العجم. والآن بعد أن استقل الفرس بأرضهم، وقوميتهم، ولغتهم، ومعتقداتهم – يسأل الإنسان العربي الشرقي نفسه: إلى متى يحمل على ظهره هذا التراث الثقيل والمختلط دون أن ينقيه، وأن يفرز فيه لنفسه الصحيح والنافع ليحدد هويته به، وليستخلص هذه الهوية من بين أصابع الخلط بين العروبة والعجمة.. وليستخلص دينه الحق من بين أنقاض وأكداس وألغاز وموضوعات هذا

الـتراث، ليسـترجع لحياتـه وقلبـه وعملـه هـذا الـدين "إسـلاما" علـى ملـة إبـراهيم، والرسـول الكـريم، ولـيس هـذا النحـل الـتي ظهـرت بهـا أقنعـة الأحـاجي والمعمليـات والهسـتيريات والإسـرائيليات في أقـوال أمثـال الحـلاج والبسطامي وابن عربي!

إن هـذا الإنسـان "الشـرقي" الـذي لا يـزال ينشـأ فـوق أرضـه العربيـة في حضانة الكثير من هذه المتناقضات المتساقطة عليه من هذا التراث الجامع بين الصحيح والموضوع، والحق والزيف – يريد أن يحدد هويته وهو ينتمي على أرض العرب إلى أسلافه العرب.. يريد أن يستخلص من التراث أفضل مـا فيـه بجـوار القـرآن والحـديث.. يريـد تراثـا لا يحقـر العـرب، ولا يشـتت الديانـة، ولا يسـخر الكتابـة الأدبيـة لهدم مبـادئ الأخـلاق، وتجـاوز حـدود الله، والـدعوة للشـعوبية فـوق الأرض العربيـة، كمـا تخصـص في ذلـك الأصفهاني وهو يجعل تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده هامشا على أصوات الجـواري المغنيـات في مجـالس الخمـر والزمـر.. وهـو هـامش حشـوه الكيـد والزاريـة والعبـث.. ومثـل كتـاب المعـارف الـذي لا معرفـة فيـه لابـن قتيبـة، أو كتب ابن المقفع التي لا أدب فيها.. عن الأدب!

إن هـذا الإنسـان الشـرقي وهـو يطلـب في صـحوة الأمـة العربيـة أمـام غزاتهـا الجـدد بالسـلاح، وبالسـلع الاسـتهلاكية، وبالأفكـار – يحـس أن الإلحاح النفسـي أصبح شـديدا عليـه ليعـرف علـى وجـه التحقيـق: مـن هـو؟ .. ليخلـع وهـو يسـتعيد قدرتـه علـى العطـاء بالإيمـان والعلـم – زنـاره الشـرقي، ويظهـر لنفسـه لأعدائـه ولأصـدقائه وللعـالم في ثوبـه العربـي.. ليعـزز نمـاءه بالصحيح من تراثه، وليعزل غير الصحيح منه.. وهو ينتهي عنه.

إن هـذا الإنسـان "الشـرقي" قـد رجـع بـدورات الـزمن يبصـر شمـس الصـحوة العربيـة تشـرق عليـه فـوق وطنـه العربـي.. وسـواء أكـان تركيـا أو

روميا أو فارسيا، أو عربيا مبهما، أو عربيا جليا، فقد تعرب لسانه، وتعرب مصيره.. فوق هذه الأرض.. أرض العرب.. وبقى أن يتعرب قلبه فيؤمن، وأن يصدق إيمانه فيعمل بوحي الإيمان، وشريعة القرآن، ويسلك بهذا العمل سلوك الإنسان الذي أنعم الله عليه بنعمة الإيمان والقرآن.

لقد وصل هذا الإنسان "الشرقي" إلى مفترق الطرق. فأما أن يذوب ويغيب، فلا يبكي عليه أحد.. وإما أن ينيب إلى الله ويستجيب، فيملك طريقه، ويستعيد ذاته، ويبنى على الإيمان والسواسية والعدل مجتمعه.. ويتقدم.

إنه هنا ينبغي أن يكون إنسانا عربيا مؤمنا لا يحل غيره فيه، ولا يحل له هو أن يغيب عن نفسه، أو أن يخرج عن واقعه، أو أن يستجيب لصوت أي ردة عن إيمانه البسيط القديم، وطريقه المفتوح الواسع، وقرآن الله المحكم المبين.

إنه لا ينبغي له أن يضعف فيسمع من غزاته وساوس قديمة، أو وساوس بمتاع مستحدث، أضيفت إليه نكهة رومية صارخة، والغاز أوروبية غبية، ومتاهات وخرافات قادمة من بعيد تتبرج باسم عصر العلم. أن عليه أن لا يسمع لأي صوت يفتنه مرة أخرى كذلك الصوت الذي أخرجه من جنة إيمانه واتزانه، والذي كان يخرج له دائما من فم امرأة في سفر العجم القديم الذي عربه الجهشياري وهو "ألف ليلة وليلة".. الصوت الذي يقول له بغواية آمرة "قم نعمل انبساطا".. لقد انبسط المسكين حتى انطوى مجده في انبساطه الطويل.. والآن لم يبق له إلا أن يقف على قدميه ويسمع إلى الصوت الصادق الصوت الأخر الذي يقول له من كل مكان.. من نفسه، ومن الآفاق.. ومن متغيرات التاريخ، ونداءات المستقبل: "قم أيها العربي لتبني ذاتك، ..وإرادتك.. ومجد أمتك.. وأنت تعطي حق الله عليك".

الإسرائيليات الأوروبية:

في صحوته قام.. هذا الإنسان العربي.. في صحوته المتجددة المراحل في العصر الحديث.. قام بتخطي العوائق التي يضعها غزاته على طرقه، وتحت أقدامه، وفي نفسه وفكره.

لقد انتفض بعد انقشاع المحاق التركي.. ورغم ضربة نابليون.. وعندما رفع عرابي سيفه في وجه تحالف الخديوي مع الإنجليز هجموا عليه في ذروة قوة الاستعمار.. ومع ذلك فقد قام هذا الإنسان ونهض.. مسح وجهه بيده ولم ينهزم.

وانطلق من "القمقم" كل مخطط الحروب الصليبية المختزن.. فأزاح الإنجليز الشريعة الإسلامية ووضعوا مكانها منذ سنة 1883 قوانين أوروبا المتناقضة معها.. أزاحوها لكي يضعوا المصريين بأمر الأرمني المغامر نوبار في إطار تشريعات أوروبية يتحركون بأغلالها، لا لخدمة المستعمرين فحسب، وإنما لتدمير المعاني والأخلاق الإسلامية التي نجحت بها مصر، وليمسخوا ملامحها، وليعبدوها عن مقوماتها، وليحدثوا انفصالا في حياتها بين الحقيقة القانونية والواقع الاجتماعي، كما يقول المستشار عبد الحليم الجندي في العدد 3 السنة 18 من مجلة إدارة قضايا الحكومة.

لقد فرض الإنجليز على المصريين بعد عرابي أن يستوردوا قوانين وتشريعات أوروبية غريبة عنهم، بل متناقضة معهم، وحتى بعض القضاة الأجانب الذين عملوا في القضاء المختلط، مثل المستشار مسينا الذي رأس القضاء الإيطالي فيما بعد في روما كان يستهول هذا المسخ التشريعي للمجتمع الإسلامي المصري، فكان يقول عن التشريع الأوروبي المستورد

"إن شبح زعيم المدرسة التاريخية "سافيني" لترتعد فرائصه من تصور استيراد أو اقتراض أمه لتشريعاتها".

ومع ذلك نهض الإنسان العربي في مصر على قدميه، وظل يجاهد طوال القرن الماضي وهذا القرن لاستعادة شريعته.. لقد تضافرت قوى علماء الدين، ومستشاري محكمة الاستئناف، وفقهاء وأساتذة الجامعات، وأعضاء مجلس الشعب حتى تم في سنة 1971 تغيير الدستور ووضع المادة التي تنص على أن الشريعة الإسلامية مصدر أساسي للتشريع، وحتى بدأت مهمة التقنين للشريعة في سنة 1976.

وكان من العوائق والتحديات أيضا ما سارع إليه الاستعمار بعزل الدين عن مناهج التعليم بكل مستوياته، في إطار مناخ هذه القوانين الأجنبية المستوردة وعزل الأزهر بما فيه من الدين عن الحياة العامة، وعن طبيعة العصر.

ولم يستسلم الإنسان العربي في صحوته ليخرج من زناره الشرقي، ويستخلص هويته العربية الإسلامية.. فبدأ تيار الدين يغزو الجامعات في مفاهيم طلابها، وداخل اتحاداتها وفي رحابها، وتمضي المطالبة بتصحيح الأوضاع، وتقويم المعوج بيد الاستعمار وطفيلياته.. وبدأ الأزهر بعد الثورة يسبق إلى الطريق الصحيح.. ولم يعد معنى الأزهري أنه "المغلق" عن عصره، والملفوف داخل ماضيه.. بل خطوة وراء أخرى يستعيد الأزهر مفهوم الجامعة التي أنشأها المسلمون قبل أن يفك الأوروبيون الحط.. الجامعة التي تعلم علوم الدنيا والدين داخل المساجد، بغير أجر، ولجميع الأعمار، وجميع العلوم الدينية والطبيعية في وحدة متسقة.. عبر الحياة.. إلى مستقبل يفنى به الفناء، ويحيا به الخلود.

ثم بدأت مرحلة من أخطر المراحل حين ظهر جيل "الحضانة الأوروبية" .. الجيل الذي رضع مستحلب المناهج التي وضعها المستعمر، تحت إشراف أساتذة تتلمذوا على الغالبين في جامعات أوروبا وأمريكا.. بدأت المرحلة المخططة والناطقة باللغة العربية، لتقويض ثقافة المجتمع باتجاهه العربي الإسلامي.. لتوهين الدين، والتاريخ، واللغة نفسها التي ينفثون سمومهم باستغلال جاذبيتها وسحرها، وهم يوزعون في كل اتجاه هذه الإسرائيليات الأوروبية الجديدة لتغيير وجه المجتمع العربي الإسلامي إلى ملامح ومعتقدات وصراعات أوروبا اللادينية.. تحت شعارات "التخلص من القديم".. و"فصل الدين عن الدولة".. ولعبة "اليمين واليسار"!!

نعم.. بدأ جيل "البزازة الأوروبية" الذي رضع ثقافة جامعات الغرب ينشط وهو يدق الأرض متعاليا ويزأر، بينما توضع تحت يده أكثر الصحف، والمطابع، والدعايات الأجنبية التي تنعكس على الرأي العام.. لينقل الشمس من مطلعها.؟!

في عام واحد وقعت ضربتان لإطفاء نور الشمس.. والزراية بالعرب وبالدين، أي بالعرب وبالإسلام معا.. ضربة شرقية والأخرى غربية.. في المفهوم.. والهدف.. ومصدر العلم المزعوم!

ضربة الاستشراق الغربي تولاها طه حسين في أول عنفوانه عندما أصدر كتابه التعس "في الشعر الجاهلي" وفيه بغير تبصر، وفي غفلة من شعب مصر في أغلال الأمية هجم هجمته العشوائية على جملة من الحقائق الدينية والعربية الأساسية، فهو يشكك في نسبة العرب إلى إبراهيم، وفي إقامتها قواعد بيت الله في مكة رغم النص القرآن، وهو يشكك في وحدة اللسان العربي بين الحجاز واليمن، وهو يقول بانتحال الشعر الجاهلي ليمحو بكذبة واحدة تراث أمة هي أم جميع الحضارات في العالم، حتى

حضارة بحر الروم، وحضارة فرنسا التي كانت ملهمته وأستاذه عندما انزلق بأبحاث المستشرقين هذا المنزلق.

على أن الإنسان العربي لم يكن نائما.. وقام الشعب العربي في مصر وغيرها يدين طه حسين.. أدانه الأزهر.. وأدانه القضاء.. وأدانه سير التاريخ بهذا الشعب وهو يتقدم بهويته هو.. وليس بهواية طه حسين ومدرسة طه حسين.

وتصدى لهذا الإفك كثيرون في حينه، وقبل أن يجف مداد قلمه.. فلقد كان أقل ما اجترحه طه حسين واعيا لما يفعل، أو غير واع له هو ما ذكره المحامي محمد لطفي جمعة في كتابه "الشهاب الراصد" الذي أصدره سنة 1926 للرد عليه، وذلك حيث يقول "إن طه حسين لم يترك فضيلة للعرب في علومهم وتاريخهم وآدابهم وعقائدهم دون أن يحاول هدمها بشدة وقسوة، وبتهكم واستهزاء، لم نعهد لها مثيلا في كتب العلماء.."

هذه هي أهداف الحرب الصليبية التي لا تزال معلنة على العرب المسلمين في وطنهم.. والتي صنعت لها أوروبا انكشارية جددا خدعتهم، وزيفت أفكارهم وسلطتهم بأسمائهم العربية الإسلامية على بني أوطانهم.. الأهداف دائما هي: الإسلام.. واللغة.. والتاريخ.. والخصائص والملامح والهوية العربية في أي صورة من صور الحياة.. لكي تحل محلها ملامح وخصائص ولغات وأنماط حياة أوروبية، شاذة، وغريبة، وتحت الصفر.. ولكي تطلع الشمس لأول مرة في تاريخ الأرض.. من الغرب!!

في ذلك العام نفسه.. سنة 1925 .. سقطت الضربة الأخرى لحساب الشرق الشيوعي.. لم يكن الروس بعيدين كما كان يتصور البعض.. صدر الكتاب الذي أعيد طبعه سنة 1973 في بيروت وهو "الحركات

الفكرية في الإسلام" لمؤلفه المجهول الهوية والجنسية "بندلي جوزي".. صدر هذا الكتاب في القدس على شكل نداء أو "مانيفستو" بالعربي موجه إلى الشباب العرب لينتفضوا على المقومات العربية الإسلامية الأصيلة – تماما كما دعاها طه حسين ولكن بالمقلوب.. أي بالمفهوم الشيوعي!!

في هذا النداء العاطفي الخبيث يقول الخواجا بندلي جوزي بلغته العربية الأعجمية وهو برسم مخططا عكسيا ومنسقا مع المخطط الاستعماري الغربي لكي يهدي هذه الأكاذيب القرمطية والإسماعيلية بلغة عصرية، إلى الذين حرروا عقولهم من تأثير الخرافات الاجتماعية والدينية والقومية"!!

في هذا الكتاب العميل يقدم بندلي جوزي باسم الاستشراق الروسي تاريخ الفتنة البابكية وزندقة القرامطة والإسماعيلية بصياغة جديدة تضعها في إطار "ثورات اجتماعية" ينبغي على الشعوبية المعاصرة داخل الوطن العربي أن تعيد إخراجها من قبورها في صورة أحزاب تتجه إلى ثورة شيوعية!

وفي موسوعة عن "المستشرقين" لنجيب العقيقي نجد بندلي جوزي مواطن القدس والمولد سنة 1871 محسوبا على قائمة الاستشراق الروسي، حيث أنه انتقل ليتعلم ويتخصص في اللغات السامية والدراسات الشرقية في جامعة قازان على نهر الفولجا، ثم قام بالتدريس في معهد للرهبان، ثم في جامعة قازان التي تعلم بها، ثم في جامعة باكو.. ويعتبره المستشرقون الروس أحد مراجعهم.. فمن هو بندلي جوزي؟.. ربما كان يعرف الجواب الصحيح الدكتور محمود إسماعيل عبد الرزاق مدرس التاريخ بجامعة عين شمس، والذي أعاد نشر معلومات بندلي جوزي في منشوره السابق داخل كتاب انتحله لنفسه تحت عنوان غريب وهو "الحركات السياسية في الإسلام"

وكان ذلك ويا للعجب في سنة 1973 .. في نفس السنة التي أعادت بيروت فيها نشر كتاب بندلي جوزي الذي صدر سنة 1925 ، ونفس السنة التي حقق فيها العرب على إسرائيل كمفاجأة نصر حرب رمضان!

وهكذا ظل كورس أوروبا ينشد على الكثير من منابر ومسارح الإعلام العربي أناشيد ومفاهيم الثقافة الأوروبية الغربية والشرقية.. أناشيد مخدرة، مسكرة، ومضللة، وهدامة.. تملأ الجو بأصواتها الغريبة، ورطاناتها المثيرة للتقزز في غياب الشريعة الإسلامية، التي كان المنتظر في حضورها أن يتهيأ المناخ العربي الإسلامي الذي تترشد فيه صحوة العرب، وهي تبلغ برشدهم القصد، وتستخلص نظريتهم للحياة، وقدرتهم على بناء مجتمع المؤمنين.. في هذا العصر الذي يتجلى فيه "إنسانيا" ضياع الغرب "والشرق.. معا!

لم يكن في وسع الكورس الأوروبي الفكر أن يكشف عن الدعائم الفكرية والثقافية الجديرة بالإنسان العربي في عصر صحوته، مستمدة من أصالته في الاعتقاد، وليس من تبعيته بالاستيراد..!

لم يستطع أحد من أفراد هذه الحوقة المنشدة بالأفرنجي أن يقف أمام هذا العار الخرافي الذي يتزايد انتشاره بتأثير أوروبي وشعوبي أيضا بانتشار الفرق الصوفية المتطرفة بنظريات الحلول والتي يشجعها الغرب.. وكذلك نشاط الفرق الشعوبية المقابلة، والتي تشجعها الشيوعية مع أنها تؤمن بنفس الصورة الحلولية للآلهة في البشر، كما في كتاب بندلي جوزي، ومع أن الشيوعيين يزعمون محاربة الخرافات.. ويتصورون في مناخ خرافتهم المادية أن الإيمان هو الخرافة الكبرى!

لم يبحث أحد في جوفة الإنشاد بالفكر الأوروبي في قضية "الزاهدين" في الحياة، أو قضية العدوانيين على الحياة.. لم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث عن "الهوية" وعن العقيدة.. وعن مقومات تنمية الشخصية القومية.. وعن اعتبار إحياء اللغة العربية في مقدمة المهام الوطنية والقومية والإنسانية للإنسان العربي.

لقد تركوا ذلك ومثله ليبحثوا في القضايا المضادة.. ليتساءلوا بعجب وراء أساتذتهم الأوروبيين: ما هو فضل اللغة العربية على غيرها.. أليست هي فرعا من اللغات السامية مثل العبرية والحبشية!؟

وليتساءلوا: وما هو فضل العقلية العربية إذا قيست بغيرها من العقليات الأوروبية.. أليست هذه العقلية قد عجزت عن أن تنسج من الأساطير مثل الإلياذة والأوديسة.. أو أن تخترع من المسرات والعبثيات مثل الكوميديا والتراجيديا على المسرح!؟

وهم مع كل ذكائهم.. ومع تأنقهم بوضع القبعات والبيريهات على رؤوس أفكارهم وكلماتهم.. ومع فزعهم من تصور مستقبل التعرب والدين الخالص على هذه الأرض العربية.. ومن إيمانهم بأن أكثر رواد الفلسفة والفكر والشعر – بجوار السياسة والمال – كانوا في أوروبا التي يعشقونها من اليهود، ولم يكونوا من اليونان أو الفرنسيين أو الإنجليز مثل: كانت، وجوتة ويهجل، وشوبنهاور، ونيتشة، وسبينوزا، الذي نقل إلى أوروبا مقومات فلسفتها الحديثة على الأسس العربية الأندلسية، وكارل ماركس، وماكس نوردو، وسيجموند فرويد، وبرجسون، وصمويل بتلر أستاذ برنارد شو، وصاحب بدعة صراع الأجيال التي دارت حولها أكثر المسرحيات المصرية في الجيل الماضي.. إلخ.

إن هذه الجوفة المنشدة في بلادنا على الأرغن والأوراتوريوم الأوروبي العلماني والخداعي تنسى، وتجهل، وتتجاهل أحيانا أنه في الوقت الذي يحاولون أن يشدوا فيه انتباهات شعبنا إلى أسوأ ما في أوروبا، وأن تجحظ العيون رواءهم في التفاهات الفاضحات – فإنه على أرض عربية غالبية، منتزعة منا كحبات عيوننا، تزرع أوروبا "إسرائيل" امتدادا لنجاح المخططات الصهيونية – في غفلاتنا – وباستمرار التخدير الفكري لنا، والتنويم القومي. وإن إسرائيل التي هي امتداد المخططات المضادة. للعرب كانت تجسيدا لنجاح جمعيات أسسها المثقفون اليهود في قلب أوروبا باتجاه إحياء رفات شعب يهودي مات منذ نحو 20 قرنا، من أول جمعية "محبي صهيون" إلى جمعية "قديما" أي "إلى الأمام" التي نشأت سنة 1870 إلى حركة "بيلو" المأخوذة من الحروف الأولى من جملة من التوراة وهي "بت يعقوب ليخ أوتيلحا" أي "بيت يعقوب هلم فاسلك في نور الرب".. فهؤلاء اليهود سادة الثقافة الأوروبية يفتعلون الأسباب ضد التاريخ، وضد العرب، وضد العدل الإنساني، والقانون الدولي، تحت لهب أشواق دينية من عصور غابرة مصوغة ومنصهرة في أطماع سياسية.. إنهم يجيئون من أوروبا الملحدة ليقيموا على أرضنا، وفي ظل تاريخنا الشامخ، دولة دينية، ومجتمعا يحكمه كتاب من الله هو التوراة، وإن حرفوه، ويحبون من أجل ذلك لغتهم الميتة "العبرية" التي كانت في عز شبابها لا تتجاوز أن تكون إحدى اللهجات المريضة والمستعجمة باللسان العربي..

واليوم في إسرائيل يستمر اليهود أمام أعين المثقفين المتبرنطين على أفكارهم في بلادنا على نفس طريق أطماعهم.. وينشئون جمعية جديدة تزيد من إحساس الإسرائيلي القلق على مصيره أمام الصحوة العربية بأهمية قيادة "التوراة" للمجتمع الإسرائيلي.. لقد أنشئوا الجمعية أو الجماعة التي

سموها "ناطوري كارتا" أي "حرس التوراة".. فهل كان من الممكن أن نتصور إمكان قيام "جنود القرآن" من هذا القبو الحلزوني الذي يعيش في جليده وعتامه هذه الجوقة من مثقفينا، الذين لا يزالون ينشدون ضياعهم في حب أوروبا.. أوروبا المتعة.. والرواية الخيالية.. والمسرح الذي أخذ يحتضر؟!

غير معقول.. لأن هؤلاء الجنود.. جنود الله.. والقرآن.. هم الذين قدموا حياتهم لحياة وعزة العرب، ولبقاء ونماء معتقدات العرب ولغة العرب وهم يهتفون "الله أكبر".. ويعبرون القناة فوق أعناق جنود إسرائيل.. يعبرون القناة.. وعوائق التردد.. والهزيمة.. إلى تحرير الأرض العربية، وتحرير الإرادة أيضا، وامتلاك الطريق الصحيح.. طريق النصر.. الطريق الذي شقه الإنسان العربي الصادق.. الإنسان المؤمن.. الخبير بالسلم والحرب.. والمتركز إلى العلم والدين.. كما فعل في رمضان.

إن الطريق الكبير الذي لا تزال أمامنا أشواط وأشواط نقطعها عليه.. إنه طريق النصر الذي يحققه شعبنا وأجيالنا فوق الدبابات الإسرائيلية، كما يحققه فوق الإسرائيليات الأوروبية.. وفوق شراك الأكاذيب في الرواية الخيالية، والمسرح المخمور.. وأفلام الجنس والعنف والزيف..!

نعم إنه طريق النصر.. إلى بناء وجودنا العربي المتقدم بالعلم والإيمان.. والصدق والقرآن.